النّكير والوعيد على من فعل ذلك ، وسدّ الذّرائع المؤدّية إلى ذلك فقال : اشتدّ غضب الله على قومٍ اتّخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد . وقال : اللّهمّ لا تجعل قبرى وثنًا يعبد . وروى مسلم عن النّعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : الحلال بيّن والحرام بيّنٌ وبينهما أمورٌ متشابهات ، فمن اتّقى الشّبهات استبرأ لدينه وعرضه . ومن وقع فى الشّبهات وقع فى الحرام كالرّاعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه . فمنع من الإقدام على الشّبهات مخافة الوقوع فى المحرّمات وذلك سدًّا للذّريعة . وقال ﷺ : لا يبلغ العبد أن يكون من المتّقين حتّى يدع ما لا بأس به حذرًا ممّا به البأس » .

الآيــة رقــم (١٠٥)

قال تعالى : ﴿ ما يودّ الّذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزّل عليكم من خيرٍ من ربّكم ، والله يختصّ برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

ما يودّ : ما يحبّ[١] ونفى بما لأنّها لنفى الحال فهم ملتبسون بالبغض والكراهة أن ينزّل عليكم[٢] .

من أهل الكتاب .... « مِنْ الأولى للبيان ، لأنّ الّذين كفروا جنسٌ تحته نوعان ، أهل الكتاب والمشركون ، كقوله تعالى : ﴿ لم يكن الّذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ﴾ »[٣] والظّاهر العموم فى أهل الكتاب وهم اليهود والنّصارى[٤] .

ولا المشركين : أى ولا من المشركين لا يودّون أن ينزّل عليكم[٥] والظّاهر العموم فى المشركين وهم مشركو العرب وغيرهم[٦] ودخلت لا فى قولــه ولا المشركين للتّأكيد[٧] .

---

(١) تفسير الطّبرى ١ / ٣٧٧ (٢) البحر المحيط ١ / ٣٣٩ .
(٣) الكشّاف ١ / ٢٣٢ (٤) البحر المحيط ١ / ٣٣٩ .
(٥) معانى القرآن للأخفش ١ / ١٤٣ وانظر معانى القرآن للفرّاء ١ / ٧٠ .
(٦) البحر المحيط ١ / ٣٣٩ وانظر تفسير الطّبرى ١ / ٣٧٨
(٧) البحر المحيط ١ / ٣٤٠ .

من خير : من مزيدة لاستغراق الخبر[١] والخير الوحى وكذلك الرّحمة كقوله تعالى : أهم يقسمون رحمة ربّك . والمعنى أنّهم يرون أنفسهم أحقّ بأن يوحى إليهم فيحسدونكم وما يحبّون أن يُنَزَّلَ عليكم شيءٌ من الوحى[٢] .

من ربّكم : من لابتداء الغاية كما تقول : هذا الخير من زيد[٣] .

والله يختصّ برحمته من يشاء : أى يفرد بها ، وضدّ الاختصاص الاشتراك[٤] قال علىّ ابن أبى طالب رضى الله عنه : يختصّ برحمته أى بنبوّته ، خصّ بها محمّدًا ﷺ . وقال قوم : الرّحمة القرآن . وقيل : الرّحمة فى هذه الآية عامّةٌ لجميع أنواعها الّتى قد منح الله بها عباده قديمًا وحديثًا . يقال : رحم يرحم إذا رقّ . والرّحم والمرحمة والرّحمة بمعنى . قاله ابن فارس . ورحمة الله لعباده إنعامه عليهم وغفره لهم[٥] واختصاصه إيّاهم بها إفرادهم بها دون غيرهم من خلقه[٦] .

ذو يكون بمعنى صاحب[٧] « والوصف بذو أشرف عندهم من الوصف بصاحب ، لأنّهم ذكروا أنّ ذو أبدًا لا تكون إلاّ مضافةً لاسم فمدلولها أشرف . ولذلك جاء ذو رعين وذو يزن وذو الكلاع ولم يسمّوا بصاحب رعين ولا صاحب يزن ونحوها .... ولذلك وصف الله تعالى نفسه بقوله : ذو الجلال ، ذو الفضل »[٨] .

نهت الآية الكريمة السّابقة المؤمنين عن أن يقولوا راعنا رغم المعنى الحسن الّذى يريدونه فى مخاطبتهم ﷺ لأنّ فى هذا القول تشجيعًا لليهود على أن يستعملوا الجملة نفسها قاصدين إلى المعنى الآخر البعيد السّيّئ . وبيّنت الآية الكريمة أنّ للكافرين عذابًا أليمًا . وهذه الآية الكريمة تبيّن الباعث للكافرين من أهل الكتاب وفى مقدّمتهم يهود المنطقة على أن يخاطبوه ﷺ فى هذه الطّريقة من لحن القول والتّورية بالمعنى الحسن القريب عن المعنى

---

(١) الكشّاف ١ / ٢٣٢ وانظر تفسير القرطبى ص ٤٥٠ .
(٢) الكشّاف ١ / ٢٣٢
(٣) البحر المحيط ١ / ٣٤٠ .
(٤) البحر المحيط ١ / ٣٤٠
(٥) تفسير القرطبىّ ص ٤٥٠ .
(٦) تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٧٨
(٧) البحر المحيط ١ / ٣٣٦ .
(٨) البحر المحيط ١ / ٣٤١ .

السّيّئ البعيد المقصود . ويلحق بكافرى أهل الكتاب المشركون . وإذا كان يهود المنطقة رمزًا لكافرى أهل الكتاب ، فإنّ مشركى العرب رمزٌ للمشركين فى كلّ زمانٍ ومكان .

والآية الكريمة تقرّر أنّ الّذين كفروا من أهل الكتاب ، اليهود والنّصارى معًا ، وأنّ المشركين عمومًا ، مشركى العرب خصوصًا ، ما يودّ أىّ فريقٍ من هؤلاء ولا تحبّ أىّ جماعةٍ منهم أن ينزّل على المؤمنين أدنى خيرٍ من ربّهم جلّ وعلا . والمعنى : ما يودّ الّذين كفروا من أهل الكتاب ولا من المشركين . فصفة الكفر بنعم الله تعالى وآلائه هى الصّفة الرّئيسيّة الّتى تجمع بين أولئك المبغضين لدين الإسلام الّذى رضيه الله تعالى لعباده ، والمعروف أنّ الكفر ملّةٌ واحدة . ويلاحظ مجىء « لا » الّتى تفيد التّوكيد فى القول : « ولا المشركين » وفى ذلك توكيدٌ لنفي ودّ كلٍّ من كافرى أهل الكتاب وكافرى المشركين أن ينزّل على المؤمنين من خيرٍ من ربّهم . وإنّ لفظة الخير عامّة تشمل كلّ مظاهر الخير الّتى اصطفى بها هذه الأمّة المحمّديّة ربُّها جلّ وعلا . وحينما يخاطب اليهود المصطفى ﷺ فى طريقةٍ تنبئ عن بغضهم للمصطفى ﷺ نستطيع أن نفهم أنّ من أهمّ مظاهر الخير الّتى متنّ الله تعالى بها على هذه الأمّة أن بعث فيها رسولاً من أنفسها وقد جاء فى سورة آل عمران(١) قوله تعالى : ﴿ لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلالٍ مبين ﴾ وقد اصطفى الله تعالى هذا الرّسول الخاتم بآخر الكتب السّماويّة وأشرفها ، وفى هذا الاصطفاء اصطفاء ضمنىٌّ لأمّته ﷺ وقد جاء فى سورة فاطر(٢) قوله تعالى : ﴿ ثمّ أورثنا الكتاب الّذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالمٌ لنفسه ومنهم مقتصدٌ ومنهم سابقٌ بالخيرات بإذن الله ، ذلك هو الفضل الكبير . جنّات عدنٍ يدخلونها يحلّون فيها من أساورَ من ذهبٍ ولؤلؤًا ، ولباسهم فيها حرير . وقالوا الحمد لله الّذى أذهب عنّا الحَزَن ، إنّ ربّنا لغفورٌ شكور . الّذى أحلّنا دار المُقامة من فضله لا يمسّنا فيها نصبٌ ولا يمسّنا فيها لغوب ﴾ وممّا اصطفى الله سبحانه وتعالى به هذا النّبى الكريم وهذه الأمّة المحمّديّة سنّته ﷺ المبيّنة للقرآن الكريم وقد جاء فى سورة النحل(٣) قوله تعالى :

---

(١) الآية ١٦٤ (٢) الآيات ٣٢ — ٣٥ .
(٣) الآية ٤٤ .

﴿ وأنزلنا إليك الذّكر لتبيّن للنّاس ما نُزّل إليهم ولعلّهم يتفكّرون ﴾ وحينما يكون القرآن الكريم المتضمّن جانبًا كبيرًا من سيرته العطرة ﷺ ، وحينما يتكفّل الله تعالى بحفظ هذا الكتاب العزيز إلى يوم الدّين ، وحينما يسخّر الله سبحانه وتعالى جيشًا من العلماء الغيورين على هذا الدّين كى يقدّموا لسنّته ﷺ أجلّ خدمة ، يكون معنى ذلك سهولة اتّخاذه ﷺ أسوةً حسنة وقد قال عزّ من قائل فى سورة الأحزاب[1] : ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾ ويعتبر كلّ ذلك من مظاهر الخير الّتى أنزلها الله سبحانه وتعالى على هذه الأمّة المحمّديّة وقد خاطب المصطفى ﷺ هذه الأمّة فى حجّة الوداع بقوله[2] : (وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلّوا أبدًا أمرًا بيّنًا كتابَ الله وسنّةَ نبيّه) وما الّذى يمكن أن يقال عن الخير الّذى أنزله الله تعالى على هذه الأمّة منذ أن بعث فيها ابن مكّة البار محمّد بن عبد الله ﷺ نبيًّا ورسولاً بأكثر من القول بأنّ كلّ خيرٍ نال هذه الأمّة إنّما هو ببركة هذا الدّين الإسلامىّ الّذى بعث الله تعالى به خاتم الأنبياء والمرسلين محمّد بن عبد الله ﷺ الّذى اصطفاه بأشرف كتبه السّماويّة ، هذا الّدين الّذى قال الله سبحانه وتعالى فى حقّه[3] : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ .

وانظر إلى فضل الله سبحانه وتعالى على هذه الأمّة المحمّديّة المسلمة لله ربّ العالمين حينما يخاطبها ربّها عزّ وجلّ فى القول : ﴿ أن ينزّل عليكم من خيرٍ من ربّكم ﴾ وانظر وراء ذلك إلى فضل الله تعالى على هذه الأمّة فى استعمال لفظة ربّ من القول : « من ربّكم » والمعروف أنّ لفظة ربّ لا تستعمل فى القرآن الكريم إلاّ فى مواقف الخصوص ، وفى مواقف التّنبيه إلى نعم هذا الرّبّ الكريم وآلائه الّتى لا تعدّ ولا تحصى ، وفى مواقف التّنبيه إلى وجوب شكر العباد لربّهم جلّ وعلا مربّيهم بنعمه وآلائه . ويكون ذلك الشّكر ابتداءً بعبادته جلّ وعلا وحده لا شريك له . إنّ الّذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين يكرهون أدنى خيرٍ يصطفى به الله تعالى هذه الأمّة ، ومن باب أولى أن يكون كرههم أشدّ

---

(١) الآية ٢١

(٢) السّيرة النّبويّة لابن هشام ٤ / ٢٧٦ .

(٣) سورة المائدة ٣ .

لرحمة الله تعالى المهداة ونعمته المسداة محمّد بن عبد الله ﷺ . والآية الكريمة تقرّر فحوى قوله تعالى فى سورة الأنعام[١] : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ قال تعالى : ﴿ والله يختصّ برحمته من يشاء ﴾ وانظر إلى لفظة الرّحمة الّتى تستعمل هنا بعد استعمال لفظة الخير . والله سبحانه وتعالى يقول عن اصطفائه جلّ وعلا محمّدًا ﷺ بنعمة النبوة والوحى فى سورة : الزّخرف[٢] : ﴿ وقالوا لولا نزّل هذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيم . أهم يقسمون رحمة ربّك ، نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدّنيا ورفعنا بعضهم فوق بعضٍ درجاتٍ ليتّخذ بعضهم بعضًا سُخريًّا ، ورحمة ربّك خيرٌ ممّا يجمعون ﴾ .

إنّ على المسلمين أن يقدروا نعمة اختصاصه جلّ وعلا إيّاهم برحمته دون سواهم حقّ قدرها . ولا نجد أنفع فى باب الذّكر من آى الذّكر الحكيم . قال عزّ من قائل[٣] : ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتابًا فيه ذكركم أفلا تعقلون ﴾ وقال تعالى[٤] : ﴿ فاستمسك بالّذى أوحى إليك إنّك على صرٰطٍ مستقيم . وإنّه لذكرٌ لك ولقومك وسوف تُسْألون ﴾ إنّ ذكر المصطفى ﷺ وذكر أمّته وشرفه ومجده وسؤدده عليه الصّلاة والسّلام هو وأمّته فى الاستمساك بتعاليم هذا الكتاب العزيز الّذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد . ولو أنّ الأمّة الإسلاميّة أعرضت ــ لا سمح الله ــ عن ذكر ربّها فالله سبحانه وتعالى غنىٌّ عنها وسوف يستبدل قومًا غيرها . وقد قال تعالى[٥] : ﴿ وإن تتولّوا يستبدل قومًا غيركم ثمّ لا يكونوا أمثالكم ﴾ وقال تعالى[٦] : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقومٍ يحبّهم ويحبّونه أذلّةٍ على المؤمنين أعزّةٍ على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسعٌ عليم ﴾ .

أمّا حينما يرعى المؤمنون تلك النّعم ويقومون بشكرها فإنّ هذه النّعم تبقى وفضل الله تعالى يزيد . وهذا هو الّذى يفهم من التّذييل فى الآية الكريمة : ﴿ والله ذو الفضل

---

(١) الآية ١٢٤
(٢) الآية ٣١ ، ٣٢ .
(٣) سورة الأنبياء ١٠
(٤) سورة الزّخرف ٤٣ ، ٤٤ .
(٥) سورة محمّد ٣٨
(٦) سورة المائدة ٥٤ .

العظيم ﴾ إنّ فضل الله تعالى على هذه الأمّة عظيم ، وخيره عميمٌ عليها إلى يوم الدّين ، ورحمته بها لا حدود لها ، شريطة أن تشكر هذه الأمّة ولا تكفر ، تذكر ولا تنسى ، تعمل ولا تكسل أو تتباطأ .

الآيــة رقــم (١٠٦)

قال تعالى : ﴿ ما نَنْسَخْ مِنْ آيةٍ أو نُنْسِها نَأْتِ بخيرٍ منها أو مِثْلِها ، أَلَمْ تعلم أنّ الله على كلّ شيءٍ قدير ﴾ .

سبب النزول .

« إن اليهود لمّا حسدوا المسلمين فى التّوجّه إلى الكعبة وطعنوا فى الإسلام بذلك وقالوا : إنّ محمّدًا يأمر أصحابه بشيءٍ ثمّ ينهاهم عنه ، فما كان هذا القرآن إلاّ من جهته ولهذا يناقض بعضه بعضًا فأنزل الله : وإذا بدّلنا آيةً مكان آية[١] وأنزل ما ننسخ من آية »[٢] .

ما ننسخ من آية : يقول ابن فارس[٣] : « النّون والسّين والخاء أصلٌ واحد ، إلاّ أنّه مختلفٌ فى قياسه . قال قوم : قياسه رفع شيءٍ وإثبات غيره مكانه . وقال آخرون : قياسه تحويل شيءٍ إلى شيءٍ » ويقول القرطبىّ[٤] : « النّسخ فى كلام العرب على وجهين .

أحدهما النّقل كنقل كتابٍ من آخر ، وعلى هذا يكون القرآن منسوخًا ، أعنى من اللّوح المحفوظ وأُنزل إلى بيت العزّة فى سماء الدّنيا . وهذا لا مدخل له فى هذه الآية ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إنّا كنّا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ ، أى نأمر بنسخه وإثباته .

الثّانى : الإبطال والإزالة . وهو المقصود هنا . وهو منقسم فى اللّغة على ضربين :

أحدهما : إبطال الشّىء وزواله وإقامة آخر مقامه . ومنه نسخت الشّمس الظّلّ إذا

---

(١) سورة النّحل ١٠١ .

(٢) تفسير القرطبىّ ص ٤٥١ وانظر الكشّاف ١ / ٢٣٢ والبحر المحيط ١ / ٣٤١ .

(٣) معجم مقاييس اللّغة « نسخ » ٥ / ٤٢٤ وانظر نفردات الرّاغب الأصفهانى ص ٤٩٠ .

(٤) تفسير القرطبىّ ص ٤٥١ ــ ٤٥٤ .

أذهبته وحلّت محلّه . وهو معنى قوله تعالى : ﴿ ما ننسخ من آيةٍ أو ننسها نأت بخيرٍ منها ﴾ . وفى صحيح مسلم . لم تكن نبوّةٌ قطّ إلاّ تناسخت ، أى تحوّلت من حالٍ إلى حال ، يعنى أمر الأمّة . قال ابن فارس : النّسخ نسخ الكتاب . والنّسخ أن يزيل أمرًا كان من قبل يعمل به ثمّ ينسخه بحادثٍ غيره ، كالآية تنزل بأمرٍ ثمّ ينسخ بأخرى . وكلّ شيءٍ خلف شيئًا فقد انتسخه يقال : انتسخت الشمس الظلّ والشّيب الشّباب . وتناسخ الورثة : أن تموت ورثةٌ بعد ورثةٍ وأصل الميراث قائمٌ لم يقسم ، وكذلك تناسخ الأزمنة والقرون(١) .

الثّانى : إزالة الشّىء دون أن يقوم آخر مقامه ، كقولهم : نسخت الرّيح الأثر ، ومن هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ فينسخ الله ما يلقى الشّيطان ﴾ ، أى يزيله فلا يُتْلى ولا يثبت فى المصحف بدله(٢) ..... اختلفت عبارات أئمّتنا فى حدّ النّاسخ . فالّذى عليه الحذّاق من أهل السّنّة أنّه إزالة ما استقرّ من الحكم الشّرعىّ بخطابٍ واردٍ متراخيًا . هكذا حدّه القاضى عبد الوهّاب والقاضى أبو بكر . وزادا : لولاه لكان السّابق ثابتًا . فحافظا على معنى النّسخ اللّغوىّ إذ هو بمعنى الرّفع والإزالة ، وتحرّزا من الحكم العقلىّ . وذُكِر الخطاب ليعمّ وجوه الدّلالة من النّصّ والظّاهر والمفهوم وغيرها ، وليخرج القياس والإجماع إذ لا يتصوّر النّسخ فيهما ولا بهما . وقيّد بالتّراخى لأنّه لو اتّصل به لكان بيانًا لغاية الحكم لا نسخًا ، أو يكون آخر الكلام يرفع أوّله كقولك : قم ، لا تقم » .

آية النّسخ هذه عُظْمى فى الأحكام(٣) ومعرفة هذا الباب أكيدة وفائدته عظيمةٌ لا تستغنى عن معرفته العلماء ولا ينكره إلاّ الجهلة الأغبياء ، لما يترتّب عليه فى النّوازل من الأحكام ومعرفة الحلال من الحرام(٤) .

وقد أنكرت طوائف من المنتمين للإسلام المتأخّرين جوازه . وهم محجوجون بإجماع

---

(١) أى مضىّ قومٍ بعد قومٍ يخلفهم . مفردات الرّاغب الأصفهانىّ ٤٩٠ .

(٢) بيّنا رأينا فى معنى النّسخ بشأن آية سورة الحجّ ٥٢ ﴿ فينسخ الله ما يُلْقِى الشّيطان ﴾ فى أثناء دراستنا لفرية الغرانيق الّتى طبعت لاحقةً لدراستنا المتأمّلة لسورة الحاقّة ص ١٣٩ — ١٤٨ .

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٤٥١ .

(٤) تفسير القرطبىّ ص ٤٥١ .

السَّلف السّابق على وقوعه فى الشّريعة[١] وليس هذا من باب البداء[٢] بل هو من نقل العباد من عبادةٍ إلى عبادةٍ وحكمٍ إلى حكمٍ لضربٍ من المصلحة إظهارًا لحكمته وكمال مملكته . ولا خلاف بين العقلاء أنّ شرائع الأنبياء قصد بها مصالح الخلق الدّينيّة والدّنيويّة ، وإنّما كان يلزم البداء لو لم يكن عالمًا بمآل الأمور . وأمّا العالم بذلك فإنّما تتبدّل خطاباته بحسب تبدّل المصالح ، كالطّبيب المراعى أحوال العليل ، فراعى ذلك فى خليقته بمشيئته وإرادته ، لا إله إلاّ هو . فخطابه يتبدّل ، وعلمه وإرادته لا تتغيّر ، فإنّ ذلك محالٌ فى جهة الله تعالى[٣] .

وحذّاق الأئمة على أنّ القرآن ينسخ بالسّنّة وذلك موجودٌ فى قوله عليه السّلام : لا وصيّة لوارث . وهو ظاهر مسائل مالك . وأبَى ذلك الشّافعىّ وأبو الفرج المالكىّ . والأوّل أصحّ ، بدليل أنّ الكلّ حُكْمُ الله تعالى ومن عنده وإن اختلفت فى الأسماء . وأيضًا فإنّ الجَلْدَ ساقطٌ فى حدّ الزّنا عن الثّيّب الّذى يرجم ، ولا مسقط لذلك إلاّ السّنّة ، فِعْل النّبىّ ﷺ ، وهذا بيّن .

والحذّاق أيضًا على أنّ السّنّة تنسخ بالقرآن وذلك موجودٌ فى القِبْلة ، فإنّ الصّلاة إلى الشّام لم تكن فى كتاب الله تعالى . وفى قوله تعالى : ﴿ فلا ترجعوهنّ إلى الكفّار ﴾ ، فإنّ رجوعهنّ إنّما كان بصلح النّبىّ ﷺ لقريش[٤] وقد تنسخ التّلاوة دون الحكم كآية الرّجم[٥] .

قرأ الجمهور : ما ننسخ ، بفَتْحِ النّون من نسخ وهو الظّاهر المستعمل على معنى ما نرفع من حكم آيةٍ وتلاوتها كما تقدّم . ويحتمل أن يكون المعنى ما نرفع من حكم آيةٍ وتلاوتها على ما ذكرنا[٦] عن ابن عبّاس رضى الله عنهما : ما ننسخ من آية : ما نبدّل من آية[٧] ويقول أبو حيّان[٨] : « وفسّر النّسخ هنا بالتّبديل ، قاله ابن

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٤٥٢ .
(٢) يقال : بداله فى الأمر بَدْوًا وبَداءً وبَداةً نشأ له فيه رأى .
(٣) تفسير القرطبىّ ص ٤٥٣ (٤) تفسير القرطبىّ ص ٤٥٥ .
(٥) تفسير القرطبىّ ص ٤٥٥ .
(٦) تفسير القرطبىّ ص ٤٥٦ وانظر البحر المحيط ١ / ٣٤٢ .
(٧) تفسير ابن كثير ١ / ١٤٩ و ١٥٠ (٨) البحر المحيط ١ / ٣٤٣ .

عبّاس والزّجّاج . أو تبديل الحكم مع ثبوت الخطّ ، قاله عبد الله وابن عبّاس أيضًا . أو الرّفع ، قاله السّدّىّ » .

من آية : من هنا للتّبعيض[١] .

وآية مفرد وقع موقع الجمع ، ونظيره فارس فى قولك : هذا أوّل فارس . التّقدير أوّل الفوارس . والمعنى أىّ شىءٍ من الآيات[٢] أو نُنْسها : قرأ أبو عمرو وابن كثير بفتح النّون والسّين والهمز ، وبه قرأ عمر وابن عبّاس وعطاء ومجاهد وأبىّ بن كعب وعبيد بن عُمَيْر والنّخعىّ وابن محيصن من التّأخير . أى نؤخّر نسخ لفظها ، أى نتركه فى آخر أمّ الكتاب فلا يكون . وهذا قول عطاء . وقال غير عطاء بمعنى أو ننسأها ونؤخّرها عن النّسخ إلى وقتٍ معلوم ، من قولهم : نسأت هذا الأمر إذا أخّرته . ومن ذلك قولهم بعته نسأً إذا أخّرته ..... وقرأ الباقون نُنْسها ، بضمّ النّون من النّسيان الّذى بمعنى التّرك ، أى نتركها فلا نبدّلها ولا ننسخها . قاله ابن عبّاس والسّدّىّ . ومنه قوله تعالى : نسوا الله فنسيهم ، أى تركوا عبادته فتركهم فى العذاب . واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم..... والّذى عليه أكثر أهل اللّغة والنّظر أنّ معنى أو ننسها نبح لكم تركها من نسى إذا ترك ثمّ تعدّيه . قال أبو علىّ وغيره : ذلك متّجه لأنّه بمعنى نجعلك تتركها[٣] ويقول أبو حيّان[٤] : « وأمّا قوله : أو ننسها بغير همز ، فإن كان من النّسيان ضدّ الذّكر فالمعنى ننسكها إذا كان من أَفْعَل . أو ننسها إذا كان من فَعِل قاله مجاهد وقتادة ..... » وابن جرير الطّبرىّ يذهب إلى أنّ أولى القراءات بالصّواب من قرأ أو ننسها[٥] بمعنى نتركها وذلك « من قول الله جلّ ثناؤه : نسوا الله فنسيهم يعنى به تركوا الله فتركهم ، فيكون تأويل الآية حينئذٍ على هذا التّأويل : ما ننسخ من آيةٍ فنغيّر حكمها ونبدّل فرضها نأت بخيرٍ من

---

(١) البحر المحيط ١ / ٣٤٢ . (٢) البحر المحيط ١ / ٣٤٢ .

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٤٥٧ وانظر البحر المحيط ١ / ٣٤٣ و ص ٣٤٤ .

(٤) البحر المحيط ١ / ٣٤٣ وانظر بقيّة الكلام هنالك . وانظر معانى القرآن للأخفش ١ / ١٤٣ وتفسير الطبرىّ ١ / ٣٧٩ ، ٣٨٠ .

(٥) تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٨٠ والمعروف أنّه ما دامت القراءات متواترة فلا وجه لترجيح واحدةٍ منها .

الّتى نسخناها أو مثلها »[١] عن ابن عبّاس فى قوله : أو ننسها ، يقول : أو نتركها لا نبدّلها[٢] .

نأت بخيرٍ منها : لفظة خير هنا صفة تفضيل ، والمعنى بأنفع لكم أيّها النّاس فى عاجل ، إن كانت النّاسخة أخفّ . وفى آجل إن كانت أثقل . وبمثلها إن كانت مستوية[٣] ويقول أبو حيّان[٤] : « والخيريّة ظاهرة لأنّ المأتىّ به إن كان أخفّ من المنسوخ أو المنسوء فخيريّته بالنسبة لسقوط أعباء التّكليف . وإن كان أثقل فخيريّته بالنّسبة لزيادة الثّواب » .

أو مثلها : أو مساوٍ لها فى التّكليف والثّواب وذلك كنسخ التّوجّه إلى بيت المقدس بالتّوجّه إلى الكعبة[٥] .

ألم تعلم أنّ الله على كلّ شىءٍ قدير : الاستفهام للّتقرير[٦] ويقول أبو حيّان[٧] : « وحكمة إفراد المخاطب أنّه ما من شخصٍ إلاّ يتوهّم أنّه المخاطب بذلك أو المنبّه به والمقرّر على شىءٍ ثابتٍ عنده وهو أنّ قدرة الله تعالى متعلّقة بالأشياء فلن يعجزه شىء . فإذا كان كذلك لم ينكر النّسخ لأنّ الله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا رادّ لأمره ولا معقّب لحكمه » ويرى الطّبرىّ[٨] أنّ الخطاب هنا للمصطفى ﷺ .

« ومعنى قوله قدير فى هذا الموضع قوىّ ، يقال منه : قد قَدَرت على كذا وكذا إذا قويت عليه أقدِر عليه ، وأقدرُ عليه قُدرةً وقِدْرانًا ومَقْدِرة . وبنو مرّة من غطفان تقول : قدِرت عليه بكسر الدّال »[٩] .

بيّنت الآية الكريمة السّابقة أنّ الكافرين من أهل الكتاب والمشركين ما يودّون أن ينزّل على المؤمنين من خيرٍ من ربّهم فى هيئة آى الذّكر الحكيم ، وفى مقدّمة هؤلاء كافرو

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٧٩ . (٢) تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٨٠ .

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٤٥٨ وانظر البحر المحيط ١ / ٣٤٤ وتفسير الطبرىّ ١ / ٣٨٢ .

(٤) البحر المحيط ١ / ٣٤٤ وانظر تفسير ابن كثير ١ / ١٥٠ فهذا فحوى رأى ابن عباس وتفسير الطبرى ١ / ٣٨٢ .

(٥) البحر المحيط ١ / ٣٤٤ . (٦) الجلالين .

(٧) البجر المحيط ١ / ٣٤٥ (٨) تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٨٣ .

(٩) تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٨٣ .

اليهود . ومن مظاهر حسد اليهود للمؤمنين وبغضهم لنزول القرآن الكريم على المصطفى ﷺ اعتراضهم على النّسخ ، رغم وجوده فى اليهوديّة ، وادّعاؤهم أنّ النّسخ دليلٌ على أنّ القرآن الكريم من كلام محمّد ، ﷺ ، لأنّ تغيّر الآراء وتبدّلها من سمات البشر ، وتعمّد اليهود إغفال الحقيقة الّتى يعرفونها جيّدًا وهى أنّ له جلّ وعلا أن يتعبّد عباده بما شاء من تكاليف ، وأن يفعل بتلك التّكاليف ما شاء من إزالةٍ أو تغييرٍ أو تبديل ، لا معقّب لحكمه ولا رادّ لأمره جلّ وعلا . وإنّ الآية الكريمة لتقرّر حقيقة النّسخ وتبيّن الحكمة منه . إنّ الآية الكريمة تبيّن فى أسلوب الشّرط الّذى يجمع بطبعه طرفى الجملة ، وفى ذلك قوّة معنويّة بالغة ، وهى قوّةٌ ينمّيها القول : « من آية » والّذى يشمل كلّ آية ارتبطت بالنّسخ ، الآية الكريمة تبيّن أنّ أىّ آيةٍ يشملها النّسخ بإرادته جلّ وعلا عن طريق إزالة حكمها وإحلال حكمٍ آخر محلّه ، وهذه الآيات فى مقابل الآيات الكريمات الّتى تركت على حالها الّذى نزلت فيه ، فإنّ الله سبحانه وتعالى القادر على كلّ شىءٍ الفعّال لما يريد يأتى بخير من تلك الآية المنسوخة فى مجال النّفع لعباد الله تعالى ، بحيث إنّ تكاليفها إن كانت أشقّ كان ثوابها أجزل ، وإن كانت تكاليفها أسهل كان فى ذلك تخفيفٌ للعباد من ربّ العباد ورحمة . وقد تكون الآية الكريمة النّاسخةُ مماثلةً فى النّفع والخيريّة للآية الكريمة المنسوخة . ولا تخلو الآية النّاسخة من صفة الزّيادة فى الخيريّة عن الآية المنسوخة ، أو صفة المماثلة . وفى كلٍّ خير .

وتختم الآية الكريمة بالسّؤال التّقريرىّ الّذى يصحّ أن يكون متّجهًا أساسًا إليه ﷺ ، ويصحّ أن يتّجه وراء ذلك إلى كلّ فردٍ من أفراد الأمّة المسلمة لله ربّ العالمين ، فإنّ كلاًّ محطّ الاهتمام وهدف السّؤال . إنّ كلّ مسلمٍ لله ربّ العالمين يعلم يقينًا بأنّ الله سبحانه وتعالى على كلّ شىءٍ قدير ، وإنّ السّؤال فى الآية الكريمة يقرّر هذه الحقيقة ويعمّقها . ومن مظاهر قدرة الله تعالى إنزال هذا الكتاب العزيز الّذى عجز الإنس والجنّ عن المجىء بسورةٍ واحدةٍ من أقصر سوره . وتتجاوز القدرة العليّة هذا النّوع من القدرة ، إلى نسخ آياتٍ لاحقةٍ معانى آيات سابقة ، وفى كلّ الأحوال يظلّ القرآن الكريم هو كتاب الله تعالى المعجز بلفظه ومعناه . وبذلك تأخذ الآية بسببٍ من التّحدّى ، وكأنّها تريد أن

تقول لكافرى اليهود وغير اليهود : إنّ إعجاز القرآن الكريم يتجلّى فى كلّ آيه الكريمات ، ويستوى فى ذلك الآيات اللّاحقة والسّابقة ، النّاسخة والمنسوخة على السّواء . إنّ الله سبحانه وتعالى لا يعجزه شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء ، وإنّ من مظاهر القدرة المطلقة للّذات العليّة آيات النّسخ الّتى لها كلّ ما لآى الذّكر الحكيم من حظٍّ موفور فى مجال إعجاز القرآن الكريم والتّحدّى به .

وقد بيّن الطّبرىّ فى تفسيره[1] بعض مظاهر النّسخ للخير العاجل ، وللخير الآجل ، ولتساوى الخيرين . أمّا مثال الخير العاجل بقصد التّخفيف من الله تعالى والرّحمة فكنسخ فرض قيام اللّيل على المؤمنين . وأمّا مثال الخير الآجل فكنسخ صيام أيّامٍ معدوداتٍ من رمضان بصوم شهر كامل ، فالحكمة من النّسخ هنا حصول الثّواب الجزيل بسبب المشقّة . وأمّا مثال التّساوى فى الخيريّة فكنسخ التّوجّه فى الصّلاة شطر البيت المقدّس بالتوجه شطر المسجد الحرام لتساوى مئونة كلٍّ من الوجهتين . والله تعالى أعلم .

ونودّ أن نقف عند جملة لم يعتد المفسّرون الوقوف عندها ألا وهى جملة « نأت » الواقعة جوابًا للشّرط والّتى تبيّنّا بشأنها أنّها لا تستعمل فى القرآن الكريم إلاّ دليلاً على البعد ، الزّمانىّ أو المكانىّ أو المعنوىّ . وفى هذه المناسبة تدلّ على رفيع منزلة الآيات القرآنيّة الّتى تأتى بدلاً من الآيات الكريمة المنسوخة ، وعلى علوّ مكانة تلك الآيات . ورفيع المنزلة وعلوّ المكانة بشأن هذه الآيات الكريمات امتدادٌ لرفيع مكانة القرآن الكريم وعلوّ منزلته ، محكمًا ومتشابهًا ، ناسخًا ومنسوخا . وإنّ مجىء جملة « نأت » هنا من أجل هذه الحكمة الرّفيعة يذكّرنا بمثل هذه الآية الكريمة من سورة الإسراء الّتى جاءت فيها هذه الجملة مرّتين اثنتين للحكمة الجليلة ذاتها . قال تعالى[2] : ﴿ قل لئن اجتمعتِ الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيرا ﴾ .

---

(١) ١ / ٣٨٢ (٢) سورة الإسراء ٨٨ .

الآيــة رقــم (١٠٧)

قال تعالى : ﴿ ألم تعلم أنّ الله له ملك السّماوات والأرض ، وما لكم من دون الله من ولىٍّ ولا نصير ﴾ .

ولّي : « الواو واللّام والياء : أصلٌ صحيحٌ يدلّ على قرب . من ذلك الوَلْى : القُرب . يقال : تباعَدَ بعد وَلْى ، أى قُرب . وجلس ممّا يلينى ، أى يقاربنى . والوَلِىّ المطر يجىء بعد الوسمىّ ، سمّى بذلك لأنّه يلى الوسمىّ .

ومن الباب المَوْلَى : المُعْتِق والمُعْتَق ، والصّاحب ، والحليف ، وابن العمّ ، والنّاصر ، والجار ، كلّ هؤلاء من الوَلْى وهو القُرْب . وكلّ من وَلِىَ أمر آخر فهو وليّه . وفلانٌ أوْلى بكذا أى أحْرى به وأجدر »[1] « ومن ذلك قيل : فلانٌ ولّى عهد المسلمين يعنى به القائم بما عهد إليه من أمر المسلمين »[2] .

خُتِمت الآية الكريمة السّابقة بالسّؤال التّقريرىّ المتعلّق بالقدرة المطلقة للذّات العليّة ، وذلك فى القول خطابًا للمصطفى ﷺ ، وكلّ فردٍ من أمّته عليه الصّلاة والسّلام تبعٌ له فى الخطاب . قال تعالى : « ألم تعلم أنّ الله على كلّ شىءٍ قدير » وقد عرفنا أنّ القدرة متعلّقةٌ بالنّسخ ، وبإنزال الله تعالى آيًا من القرآن الكريم الّذى عجز الخلق عن الإتيان بمثل سورةٍ واحدةٍ من أقصر سوره . وهذه الآى خيرٌ من المنسوخة أو مثلها . ولمّا كان المقصود بالنّسخ مصلحة العباد ، ولله سبحانه وتعالى أن يفعل بالعباد وللعباد ما شاء فهو جلّ وعلا خالقهم ورازقهم ومالكهم والّذى له وحده لا شريك له حقّ التّصرّف فيهم ، فقد تمّ فى الآية الكريمة التّحوّل من الحديث عن القدرة إلى الحديث عن الملك ، وذلك على غرار الحديث فى نهاية الآية الكريمة السّابقة الّذى اتّجه أساسًا إلى المصطفى ﷺ . فإذا كانت الجزئيّة الأخيرة من قبل ابتدأت بالقول: «ألم تعلم» فإنّ الآية الكريمة تبدأ بالقول «ألم تعلم» وتقرّر الآية الكريمة فى جزئيّتها الأولى أنّ لله ملك السّماوات والأرض . ولا تخرج

---

(١) معجم مقاييس اللّغة « ولى » ٦ / ١٤١ . (٢) تفسير الطّبرى ١ / ٣٨٥ .

المخلوقات عن السّماوات والأرض . وحينما يكون له جلّ وعلا وحده لا شريك له ملك هذين الطّرفين العظيمين ، فإنّه يدخل فى الملك ما فيهما وما بينهما . وإنّ النّاس الّذين ينتفعون من النّسخ من بين خلق الله تعالى فوق هذا الكوكب الأرضىّ . وإنّ على هؤلاء العباد أن يتمثّلوا جيّدًا هذه الحقيقة وأن يقدروها حقّ قدرها وأن يمتثلوا الأوامر الله تعالى ونواهيه وأن يعلموا أنّ الخير كلّ الخير فى اتّباع التّعاليم السّماويّة الّتى أوحى الله تعالى بها إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ، وفى مقدّمة الوحى القرآن الكريم بناسخه ومنسوخه .

فإذا انصرف عن النّهج القويم والصّراط المستقيم بعض العباد ، على غرار ما فعل اليهود حينما جحدوا النّسخ كيلا يصدّقوا بنبوّة عيسى ومحمّد عليهما الصّلاة والسّلام وعلى غرار ما فعل النّصارى حينما جحدوا النّسخ كذلك كيلا يصدّقوا بنبوّة محمّد ﷺ[1] فإنّ على المسلمين المؤمنين المتّقين أن يعلموا يقينًا أنّ الكافرين لا مولى لهم ، وأنّ الله سبحانه وتعالى هو مولاهم وهو ناصرهم ، فنعم المولى هو جلّ وعلا ونعم النّصير . وأن يعلموا يقينًا كذلك أنّ من لا يتولاّه الله سبحانه وتعالى ولا ينصره فلا مولى له ولا ناصر . إنّ على أتباع المصطفى ﷺ ، الّذين يتّجه إليهم الخطاب فى الجزئيّة الثّانية والأخيرة فى الآية الكريمة ، أن يعلموا هذه الحقيقة قبل سواهم . إنّ الله سبحانه وتعالى هو وحده ولىّ المؤمنين وهو ناصرهم ، فعليهم أن يعوا هذه الحقيقة وأن يعملوا وفقها . ونستطيع أن نتبيّن التّدرج نحو القرب الأشدّ من استعمال الآية الكريمة لفظى الولىّ والنّصير . فقد عرفنا أنّ لفظة الولىّ ذات العلاقة بالقرب تعنى تولّى الله سبحانه وتعالى أمور المؤمنين المتّقين . وحينما يكون المؤمنون أهلاً لأن يتولّى الله سبحانه وتعالى أمورهم بفعل الأوامر واجتناب النّواهى ، فإنّ الله سبحانه وتعالى القادر على كلّ شىء ، والّذى له ملك السّماوات والأرض ، والمتولّى أمور المؤمنين بالعناية والرّعاية ، المسدّد خطواتهم ، سيمدّهم بعونٍ منه جلّ وعلا وتوفيق ، وليس من نتيجةٍ لتلك العناية والرّعاية ، وثمرةٍ لذلك التّأييد والتّوفيق سوى النّصر من الله سبحانه وتعالى . وقد قال عزّ من قائل[2] : ﴿ وكان حقًّا علينا نصر

---

(١) انظر مثلاً تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٨٤ وتفسير القرطبىّ ٥٤٣ .

(٢) سورة الرّوم ٤٧ .

المؤمنين ﴾ وقال تعالى(١) : ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ﴾ وقال تعالى(٢) : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم » وقال تعالى(٣) : ﴿ ولينصُرَنّ الله من ينصره ، إنّ الله لقويٌّ عزيز ﴾ .

ويقول الطّبرىّ(٤) : « وأمّا النّصير فإنّه فعيل من قولك : نصرتك أنصرك فأنا ناصرك ونصيرك ، وهو المؤيّد والمقوّى . وأمّا معنى قوله من دون الله فإنّه سوى الله وبعد الله . ومنه قول أميّة بن أبى الصّلت :

يانفسُ مالك دون الله من وَاقِ ... وما على حَدَثان الدّهر مِنْ باقى

يريد مالك سوى الله وبعد الله من يقيك المكاره . فمعنى الكلام إذن : وليس لكم أيّها المؤمنون بعد الله من قيّم بأمركم ولا نصير فيؤيّدكم ويقوّيكم فيعينكم على أعدائكم » .

على أنّ من أهمّ ما ينبغى ملاحظته بشأن نظم الآية الكريمة ممّا هو مؤيّدٌ للملك المطلق للذّات العليّة مجىء لفظ الجلالة بصريح اللّفظ للمرّة الثّانية فى القول : ﴿ وما لكم من دون الله من ولىٍّ ولا نصير ﴾ وعدم الاكتفاء باسم الضّمير العائد إلى لفظ الجلالة الّذى جاء للمرّة الأولى فى صدر الآية الكريمة : ﴿ ألم تعلم أنّ الله له ملك السّماوات والأرض ﴾ وممّا هو إضافةٌ لهذه القوّة وزيادةٌ لها مجىء اسم الضّمير العائد على الذّات العليّة فى القول : ﴿ ألم تعلم أنّ الله له ملك السّماوات والأرض ﴾ فثمّة اسمُ ضمير عائدٌ إلى لفظ الجلالة جاء به السّياق و لم يستغن عنه كى يكون القول فى مثل هذه الصّورة : ألَمْ تعلم أنّ لله .... إنّ الفخامة فى مجىء الضّمير بعد الاسم الظّاهر ، وهى فخامةٌ متمشّيةٌ مع الملك المطلق الّذى قرّرته الجزئيّة الكريمة .

---

(١) سورة آل عمران ١٦٠ .

(٢) سورة محمّد ٧ .

(٣) سورة الحج ٤٠ .

(٤) تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٨٥ .

الآيــة رقــم (١٠٨)

قال تعالى : ﴿ أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سُئِل موسى من قبل . ومَنْ يتبدّل الكفر بالإيمان فقد ضلّ سواء السَّبيل ﴾ .

سبب النّزول .

بالنّظر إلى سبب النّزول يتبيّن أنّه متعلّق بإحدى فئتين ، اليهود أو كفّار قريش بخاصّة كفّار العرب بعامّة . ونستطيع أن نتّخذ مما قاله ابن جريرٍ الطّبريّ فى سبب النّزول رمزًا لما قاله العلماء فى هذا الشّأن . يقول ابن جرير[١] : « عن ابن عبّاس : قال رافع بن حريملة ووهب بن زيد لرسول الله ﷺ ائتنا بكتابٍ تنزله علينا من السّماء نقرؤه وفجّر لنا أنهارًا نتّبعك ونصدّقك فأنزل الله فى ذلك من قولهم : أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل الآية ..... عن السّدّى : أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ، أن يريهم الله جهرةً فسألت العرب رسول الله ﷺ أن يأتيهم بالله فيروه جهرة .

.... عن مجاهد فى قول الله : أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل أن يريهم الله جهرةً فسألت قريش محمّدًا ﷺ أن يجعل الله لهم الصّفا ذهبًا قال نعم ، وهو لكم كمائدة بنى إسرائيل إن كفرتم فأبوا ورجعوا »[٢] .

ويفهم ممّا كتبه الزّمخشريّ فى الكشّاف[٣] أنّ الآية الكريمة تخاطب المؤمنين الّذين بيّن الله سبحانه وتعالى لهم من قبل مصالحهم من نسخ الآيات وقرّرهم على قدرته جلّ وعلا وملكه المطلقين . إنّ على المؤمنين « ألاّ يقترحوا على رسولهم ما اقترحه آباء اليهود على موسى عليه السّلام من الأشياء الّتى كانت عاقبتها وبالاً عليهم كقولهم : اجعل لنا إلهًا . أرنا الله جهرة وغير ذلك »[٤] ويقول أبو حيّان[٥] : « ورجح كون الخطاب للمؤمنين بقوله : ومن يتبدّل الكفر

---

(١) تفسير الطّبرى ١ / ٣٨٥ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ١ / ١٥٢ وتفسير القرطبىّ ص ٤٥٨ وص ٤٥٩ والبحر المحيط ١ / ٣٤٥ .

(٣) ١ / ٢٣٢ (٤) الكشّاف ١ / ٢٣٢ .

(٥) البحر المحيط ١ / ٣٤٦

بالإيمان . وهذا الكلام لا يصحّ إلاّ فى حقّ المؤمن وبأنّه معطوفٌ على قوله : لا تقولوا راعنا ، أى هل تفعلون ما أمرتم أم تريدون . ورجح أنّهم اليهود لأنّه سبق الكلام فى الحكايات عنهم ما قالوا ولأنّ المؤمن بالرّسول لا يكاد يسأله ما يكون كفرًا » .

ونحن نميل إلى كون الخطاب متّجهًا إلى المؤمنين بقصد تحذيرهم من التّمادى فى طرح الأسئلة على رسول الله ﷺ والإلحاف فيها خوفًا من أن يجرّهم ذلك إلى التّورّط فيما تورّط فيه بنو إسرائيل فى حقّ رسول الله تعالى إليهم موسى عليه السّلام للدّرجة الّتى طلبوا معها منه أن يجعل لهم آلهةً يعبدونها من دون الله تعالى على غرار القوم الّذين أتى عليهم بنو إسرائيل بعد أن نجّاهم الله تعالى من فرعون وملئه ، أولئك القوم الّذين يعكفون على عبادة أصنامٍ لهم ، وللدّرجة الّتى طلبوا معها من موسى عليه السّلام أن يريهم الله تعالى جهرةً كى يؤمنوا ! أمّا دليلنا على كون المؤمنين هم الّذين يخاطبون فى الآية الكريمة فهو أنّ الّذين طلبوا من موسى عليه السّلام أن يجعل لهم آلهة وأن يريهم الله سبحانه وتعالى جهرة كانوا مؤمنين بموسى عليه السّلام مصدّقين له . فصفة الإيمان بالرّسولين الكريمين مشتركةٌ بين الفريقين وإن كان البون شاسعًا بين الإيمانين . أمّا الّذين كانت منهم الجراءة من العرب على أن يطلبوا منه ﷺ ما طلب مؤمنو بنى إسرائيل من موسى عليه السّلام بأن يريهم الله تعالى جهرةً فقد كانوا مشركى العرب وليسوا المؤمنين ، وإليك الدّليل من سورة الفرقان . قال تعالى[1] : ﴿ وقال الّذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربّنا ، لقد استكبروا فى أنفسهم وعتَوْا عتوًّا كبيرا . يوم يَرَوْن الملائكة لا بُشْرى يومئذٍ للمجرمين ويقولون حِجْرًا محجورا . وقَدِمنا إلى ما عملوا من عملٍ فجعلناه هباءً منثورا » فهؤلاء الّذين يريدون أن يروا الله تعالى جهرةً لا يؤمنون بالبعث ، ويوصفون بأنّهم مجرمون ، وبسبب كفرهم جعل الله تعالى أعمالهم الصّالحة هباءً منثورا . « عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس قال : ما رأيت قومًا خيرًا من أصحاب محمّدٍ ﷺ ، ما سألوه إلاّ عن اثنتى عشرة مسألة كلّها فى القرآن : يسألونك عن الخمر والميسر ويسألونك عن الشّهر

---

(١) سورة الفرقان ٢١ ــ ٢٣ .

الحرام . ويسألونك عن اليتامى . يعنى هذا وأشباهه »[١] ويقول ابن كثير[٢] : « نهى الله تعالى المؤمنين فى هذه الآية الكريمة عن كثرة سؤال النّبىّ ﷺ عن الأشياء قبل كونها كما قال تعالى : يا أيّها الّذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزّل القرآن تبد لكم . أى وإن تسألوا عن تفصيلها بعد نزولها تبيّن لكم ، ولا تسألوا عن الشّىء قبل كونه فلعلّه أن يحرّم من أجل تلك المسألة . ولهذا جاء فى الصّحيح . إنّ أعظم المسلمين جرمًا من سأل عن شىءٍ لم يُحَرَّم فَحُرّم من أجل مسألته . ولمّا سئل رسول الله ﷺ عن الرّجل يجد مع امرأته رجلاً فإن تكلّم تكلّم بأمرٍ عظيم ، وإن سكت سكت على مثل ذلك . فكره رسول الله ﷺ المسائل وعابها ، ثمّ أنزل الله حكم الملاعنة . ولهذا ثبت فى الصّحيحين من حديث المغيرة بن شعبة أنّ رسول الله ﷺ : كان ينهى عن قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السّؤال . وفى صحيح مسلم : ذرونى ما تركتكم فإنّما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بأمرٍ فأتوا منه ما استطعتم ، وإن نهيتكم عن شىءٍ فاجتنبوه . وهذا إنّما قاله بعد ما أخبرهم أنّ الله كتب عليهم الحج . فقال رجلٌ أكلّ عامٍ يا رسول الله ؟ فسكت عنه رسول الله ﷺ ثلاثًا ، ثمّ قال عليه السّلام : لا ولو قلت نعم لوجبت ولو وجبت لما استطعتم ، ثمّ قال : ذرونى ما تركتكم ، الحديث . ولهذا قال أنس بن مالك : نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شىء فكان يعجبنا أن يأتى الرّجل من أهل البادية فيسأل ونحن نسمع » .

ومن الأدلّة على كون المؤمنين هم الّذين تخاطبهم الآية الكريمة صفة الإيمان الّتى تحثّ الآية على التمسّك بها وعدم تبدّل الكفر بها .

أم : أم هنا منقطعة ، وتتقدّر المنقطعة ببل والهمزة ، فالمعنى : بل أتريدون . فبل تفيد الإضراب عمّا قبله . ومعنى الإضراب هنا هو الانتقال من جملةٍ إلى جملةٍ لا على سبيل إبطال الأولى[٣] ومعنى الكلام التّوبيخ[٤] .

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ١٥٢ وانظر البحر المحيط ٢ / ٦١ فثمّة إشارة إلى أنّ عدد المسائل أربع عشرة .

(٢) تفسير ابن كثير ١ / ١٥٢ (٣) البحر المحيط ١ / ٣٤٦ .

(٤) تفسير القرطبىّ ص ٤٥٨ وانظر تفسير ابن كثير ١ / ١٥٢ .

والطّبريّ فى تفسيره بعد أن ذكر آراء بعض البصريّين والكوفيّين ، وبخاصّةٍ الفرّاء[١] يقول[٢] : « والصّواب من القول فى ذلك عندى على ما جاءت به الآثار الّتى ذكرناها عن أهل التّأويل أنّه استفهام مبتدأ بمعنى أتريدون أيّها القوم أن تسألوا رسولكم . وإنّما جاز أن يستفهم القوم بأم وإن كانت أم أحد شروطها أن تكون نسقًا فى الاستفهام ، لتقدّم ما تقدّمها من الكلام ، لأنّها تكون استفهامًا مبتدأً إذا تقدّمها سابقٌ من الكلام ، و لم يسمع من العرب استفهام بها و لم يتقدّمها كلام ، ونظيره قوله جلّ ثناؤه : ألم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من ربّ العالمين . أم يقولون افتراه[٣] » .

ومن يتبّدل الكفر بالإيمان : ومن يستبدل الكفر ويعنى بالكفر الجحود بالله وبآياته . بالإيمان يعنى بالتّصديق بالله وبآياته والإقرار به[٤] .

فقد ضلّ « أما قوله فقد ضلّ ، فإنّه يعنى به ذهب وحاد . وأصل الضّلال عن الشّىء الذّهاب عنه والحيد ، ثمّ يستعمل فى الشّىء الهالك والشّىء الّذى لا يؤبه له ..... والّذى عنى الله تعالى ذكره بقوله : فقد ضلّ سواء السّبيل ، فقد ذهب عن سواء السّبيل وحاد عنه »[٥] « وأمّا تأويل قوله : سواء السّبيل فإنّه يعنى بالسّواء القصد والمنهج . وأصل السّواء الوسط ... والعرب تقول : هو فى سواء السّبيل يعنى فى مستوى السّبيل وسواء الأرض مستواها عندهم »[٦] .

« وأمّا السّبيل فإنّها الطّريق المسبول ، صرّف من مسبول إلى سبيل . فتأويل الكلام إذًا : ومن يستبدل بالإيمان بالله وبرسوله الكفر فيرتدّ عن دينه فقد حاد عن منهج الطّريق ووسطه الواضح المسبول »[٧] .

عرفنا أنّ الخطاب فى الآية الكريمة متّجهٌ إلى المؤمنين بقصد تحذيرهم من أن يسألوا

---

(١) انظر معانى القرآن للفرّاء ١ / ٧١ وقد أشار إليه الطّبرىّ باعتباره كوفيًا .

(٢) تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٨٦ (٣) انظر معانى القرآن للفرّاء ١ / ٧١ .

(٤) تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٨٧ .

(٥) تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٨٧ وانظر معجم مقاييس اللّغة « ضلّ » ٣ / ٣٥٦ .

(٦) تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٨٧ وانظر البحر المحيط ١ / ٣٤٧ ومعانى القرآن للفرّاء ١ / ٧٣ .

(٧) تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٨٧ .

المصطفى ﷺ كثيرًا ويلحفوا فى الأسئلة كيلا يتورّطوا مع رسولهم كما تورّط بنو إسرائيل مع رسولهم . وعلى عادة أم حينما يسأل بها ويستفهم بها ابتداءً شريطة أن تكون فى نسق كلام ، نستطيع أن نفهم أنّ أم هنا بمعنى « بل » وعليه يكون معنى القول : « أم تريدون أن تسألوا رسولكم » بل أتريدون أن تسألوا رسولكم . وعليه تفيد « أم » هنا ما تفيده « بل » من الإضراب ، بمعنى الانتقال من جملة إلى جملة لا على سبيل إبطال الأولى كما بيّن أبو حيّان فى البحر المحيط . فإذا أردنا أن نعرف الجملة الأولى أو الجمل الّتى تمّ الانتقال منها ، وإذا أردنا أن نعرف المعنى أو المعانى الّتى تمّ التّحوّل عنها ، استطعنا أن نذهب إلى كونها مجموعةً من الأمور المطلوب من المؤمنين أن يسمعوها ويعوها ويتمشّوا بموجبها . فبعد أن نُهى المؤمنون عن أن يقولوا كما يقول اليهود : ﴿ راعنا ﴾ وطلِب منهم أن يسمعوا ، وحذِّروا من كافرى اليهود والمشركين الّذين يبغضون أن ينزّل عليهم من خيرٍ من ربّهم ، ومن مظاهر بغض اليهود للمؤمنين طعنهم فى القرآن الكريم من زاوية النّسخ ، وبعد أن تبيّن للمؤمنين وجه الحقّ فى النّسخ وتقرّر القدرة والملك المطلقان للذّات العليّة ، وفى كلّ ذلك تأكيدٌ للأمر للمؤمنين بأن يسمعوا ويطيعوا ، ومن مظاهر السّمع والطّاعة ألاّ يسألوا المصطفى ﷺ كثيرًا وألاّ يلحفوا فى الأسئلة ، بعد أن طُلِب من المؤمنين صراحةً أو ضمنًا هذه الأمور ، فعليهم أن يتمشّوا بموجبها ، تمّ التحوّل والانتقال فى هيئة الإنكار على المؤمنين إن لم يسمعوا ويطيعوا ، وفى هيئة التّحذير من طرح الأسئلة على المصطفى ﷺ والإلحاف فى طرحها ، بشأن النّسخ وغير النّسخ ، خوفًا من أن يتورّط المؤمنون مع المصطفى ﷺ فيما تورّط فيه بنو إسرائيل مع رسول الله تعالى إليهم من أسئلة متتابعةٍ ومتلاحقة ، وجراءةٍ عليه ﷺ ، على نحو ما أشارت مثلاً سورة البقرة وسورة الأعراف ، للدّرجة الّتى طلبوا من موسى عليه السّلام الّذى بعثه الله تعالى بعقيدة التّوحيد ، أن يجعل لهم آلهةً يعبدونها من دون الله تعالى على غرار المشركين العاكفين على أصنامٍ لهم والّذين مرّ بهم بنو إسرائيل فى معيّة موسى عليه السّلام بعد أن جاوز الله تعالى بهم البحر مباشرةً وأنجاهم من عدوّ الله تعالى وعدوّهم فرعون الّذى أغرقه الله تعالى وجنوده ، وللدّرجة الّتى جاء معها على لسان بنى إسرائيل خطابًا لموسى عليه السّلام كما

جاء فى سورة البقرة[١] : ﴿ لن نؤمن لك حتّى نرى الله جهرة ﴾ .

وهكذا يتبيّن دور أم فى صدر الآية الكريمة وكأنّ المؤمنين حينما يسألون وحينما يلحفون فى طرح الأسئلة قد أعرضوا عن كلّ المعانى الّتى نصّ عليها السّياق قبل « أم » وأضربوا عنها ، وبالتّالى هم أهلٌ لأن يطرح عليهم السّؤال فى هيئة الإنكار « أم تريدون أن تسألوا رسولكم » وكأنّ المعنى بل أتريدون أن تسألوا رسولكم محمّدًا ﷺ بعد كلّ ذلك النّهى والتّحذير ؟ والمعروف أنّ المؤمنين كانوا فى قمّة الامتثال لأوامر الله تعالى ونواهيه ، وقد عرفنا فيما روى ابن عبّاس رضى الله تعالى عنهما الّذى ما رأى قوماً خيرًا من أصحاب محمّد ﷺ أنّ الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ما سألوه إلاّ عن اثنتى عشرة مسألة كلّها فى القرآن الكريم . وبهذا يتبيّن أنّ المؤمنين أتباع محمّد بن عبد الله ﷺ لا يريدون أن يسألوا رسولهم ﷺ ، ولهذا قال أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه : كان يعجبنا أن يأتى الرّجل من أهل البادية يسأل النّبىّ ﷺ ونحن نسمع ، فكيف فى الإلحاف فى الأسئلة والتّمادى فى طرحها وكيف فى التّورّط فيما تورّط فيه بنو إسرائيل ممّا لا يتورّط فيه عاقل ! إنّ أتباع محمّد بن عبد الله ﷺ بعيدون كلّ البعد عن أن يتورّطوا فيما تورّط فيه بنو إسرائيل من قبل مع موسى عليه السّلام ، بل فيما تورّطوا فيه مع محمّد ابن عبد الله ﷺ على نحو ما بيّنت سورة النّساء . قال تعالى[٢] : ﴿ يسألك أهلُ الكتابِ أن تنزّل عليهم كتابًا من السّماء ، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرةً فأخذتهم الصّاعقة بظلمهم ، ثمّ اتّخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البيّنات فعفونا عن ذلك ، وآتينا موسى سلطانًا مبينا ﴾ .

وحينما يُحذّر الشّقّ الثّانى من الآية الكريمة أنّ يتبدّل المؤمنون الكفر بالإيمان فذلك معناه أنّ اتّجاه الأسئلة المنهىّ عنه طرحها فى الشّقّ الأوّل إلى الصّعب والكبير والخطير حتّى ينتهى الأمر لا سمح الله تعالى إلى الكفر البواح كما حصل لبنى إسرائيل . وهذا الشّقّ الثّانى فى تحذيره أن يتبدّل المؤمنون الكفر بالإيمان يقرّر النّتيجة السّيّئة والعاقبة الوخيمة الّتى انتهى إليها السّائلون حينما تورّطوا فى الكفر البواح وها هم أولاء قد ضلّوا سواء السّبيل .

---

(١) الآية ٥٥ (٢) سورة النّساء ١٥٣ .

ومع أنّ كلاً من حبّات عقد هذا القول « ضلّ سواء السَّبيل » يصحّ أن ترتبط بالمحسوسات ، فإنّ فى الوقوف على معانيها فى مجال المحسوسات الّذى ابتدأت به ، مفيد فى سبيل الوقوف على معانيها فى مجال المعنويّات الّذى تحوّلت إليه ، وعلى معانيها فى الآية الكريمة . إنّ الضّلال يدلّ أساسًا على ضياع الشّىء وذهابه فى غير حقّه . تقول : ضللت الدّار إذا لم تهتد إليها ، وكذلك كلّ شيءٍ مقيمٍ لا يُهْتدى إليه[١] وأمّا السّواء فإنّ أصله وهو السّين والواو والياء يدلّ على استقامة واعتدالٍ بين شيئين ، ومن هنا كان سواء الدّار مثلاً بمعنى وسطها ، وإنّما سمّى بذلك لاستوائه[٢] وأمّا السَّبيل ، وهو من الأصل « سبل » الّذى يدل على امتداد الشّىء ، فإنّه الطّريق الممتدّ طولاً ، سمّى بذلك لامتداده[٣] . « وسبيلٌ سابلة : مسلوكة . والسّابلة : أبناء السَّبيل المختلفون على الطّرقات فى حوائجهم ، والجمع السّوابل .... وأسبلت الطّريق : كثرت سابلتُها »[٤] وقد قال الطّبرىّ[٥] : « وأمّا السَّبيل فإنّها الطّريق المسبول ، صرّف من مسبول إلى سبيل » وعليه يكون المسبول الطّريق الّذى سلكته السّابلة ، وهم أبناء السَّبيل المختلفون على الطّرقات فى حوائجهم .

أما وقد تبيّنّا معنى السَّبيل والسّواء والضّلال فى مجالات المحسوسات ، فلعلّ فى هذا التّبيين فائدةً فى مجال المعنويات الّذى تحوّلت إليه ودلّت عليه واستعملت فيه . وبشأن الجزئيّة الكريمة : « ومن يتبدّل الكفر بالإيمان فقد ضلّ سواء السَّبيل » نستطيع أن نفهم أنّ السَّبيل إنّما يستعار فى المقام الأوّل من أجل الطّريق المستقيم ، دين الإسلام الّذى رضيه الله تعالى لعباده . ومع أنّ لفظ السَّبيل بمعنى الطّريق إنّما يستعار لطريقى الهدى والضّلالة معًا لكثرة سالكى الطّريقين ، فإنّ لفظة سواء فى الجزئيّة الكريمة تصرف السَّبيل إلى طريق الخير طريق الإسلام . إنّ لفظة سبيلٍ تستعار للإسلام طريق الحقّ والخير إشارةً إلى وضوح

---

(١) انظر معجم مقاييس اللّغة « ضلّ » ٣ / ٣٥٦ .
(٢) انظر معجم مقاييس اللّغة « سوى » ٣ / ١١٢ .
(٣) انظر معجم مقاييس اللّغة « سبل » ٣ / ١٣٠ .
(٤) لسان العرب « سبل » (٥) تفسير الطّبرى ١ / ٣٨٧ .

معالم هذا الطّريق وكثرة سالكيه المهتدين . وكيف لا يكون الطّريق واضح المعالم وإنّ قائد المسيرة هو محمّد بن عبد الله ﷺ الّذى تنزل عليه آيات القرآن الكريم تباعًا لزيادة الطّريق نورًا على نور ، وزيادة القلوب ثباتًا على ثبات . ولا تكتفى الجزئيّة الكريمة باستعارة السّبيل الّتى عرفنا صفتها للإسلام ، إنّما تتجاوز ذلك إلى استعارة لفظة سواء ، وقد عرفنا أنّها فى المحسوسات تدلّ على الوسط والقصد والمنهج . وبهذا يضاف إلى صفات الاستقامة ووضوح المعالم وكثرة السّالكين ، وهى الصّفات الّتى تمّ اكتسابها من لفظة سبيل ، صفاتٌ أخرى ونعوتٌ إضافيّة اكتسبتها لفظة السّبيل من لفظة سواء ، وهذه الصّفات يمكن أن يعبّر عنها بالوسط وبالقصد وبالمنهج . فالمعروف بشأن كلّ المحسوسات ، بما فيها الطّريق أنّ الفساد يصحّ أن يدبّ إلى الأطراف ، وأنّ الوسط هو أنأى الجوانب عن تسرّب الخلل والفساد إليه . وبالإضافة إلى حماية الوسط بالأطراف ، فإنّ لفظة سواء توحى باستواء هذا الوسط ، وهو استواء يُضَمّ إلى الاستقامة الّتى تفيدها لفظة سبيل . إنّ هذه النّعوت الّتى تفيدها لفظتا السّبيل والسّواء هى بعض نعوت صراط الله تعالى المستقيم .

فإذا عرفنا وراء ذلك أنّ لفظة الضّلال تستعمل فى المحسوسات أساسًا بشأن ضياع الشّىء الثّابت المقيم الّذى لا يُهْتدى إليه على غرار قولهم : ضللت الدّار ، استطعنا أن نفهم أنّ استعارة القول « ضلّ » فى الجزئيّة الكريمة : « فقد ضلّ سواء السّبيل» يضيف إلى صفات الاستقامة والوسطيّة والاستواء ، صفة الثّبات والرّسوخ . ومعروف أنّ الاطمئنان الّذى يشعر به سالك مثل هذه السّبيل والأمن الّذى يجده فى أعماقه ليس عليه من مزيد ، لأنّ كلّ الصّفات المرغوب فيها موجودة . إنّ النّظرة إلى الطّريق طولاً تبحث عن الاستقامة ، وعرضًا تبحث عن الأمن وهو ألصق بالوسط الّذى يغلب عليه الاستواء والسّلامة بعكس الطّرف . فإذا كانت تلك السّبيل قد كثر سالكوها وتتابعوا وتوالوا ، فإنّها هى السّبيل الّتى لا ترتاح النّفس إلاّ لها ولا يطمئنّ القلب إلاّ إليها . إنّ هذه النّعوت بعض معالم الصّراط المستقيم سبيل الإسلام دين الله تعالى الّذى ارتضاه لعباده ودعاهم إلى سلوكه وحذّرهم من غيره ، وقد قال عزّ من قائل[1] : ﴿ وأنّ هذا صراطى مستقيمًا

---

(١) سورة الأنعام ١٥٣ .

فاتّبعوه ولا تتّبعوا السّبل فتفرّق بكم عن سبيله ، ذلكم وصّاكم به لعلّكم تتّقون ﴾ إنّ من يستبدل الكفر بالإيمان ويشتريه به فقد ضلّ طريق الإسلام المستقيم القصد الوسط المنستوى الآمن سالكه .

الآيــة رقــم (١٠٩)

قال تعالى : ﴿ ودّ كثيرٌ من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفّارًا حسدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبيّن لهم الحقّ فاعفوا واصفحوا حتّى يأتى الله بأمره ، إنّ الله على كلّ شيءٍ قدير ﴾ .

سبب النّزول .

عن ابن عبّاس قال : كان حيّى بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب من أشدّ يهود للعرب حسدًا إذ خصّهم الله برسوله ﷺ وكانا جاهدين فى ردّ النّاس عن الإسلام بما استطاعا ، فأنزل الله فيهما : ودّ كثيرٌ من أهل الكتاب لو يردّونكم الآية[١] .

ودّ : الوُدّ محبّة الشيء وتمنّى كونه[٢] ومن المودّة الّتى تقتضى معنى التّمنّى : ودّ كثيرٌ من أهل الكتاب[٣] .

لو يردّونكم : « الرّدّ : صَرْف الشّيء بذاته أو بحالةٍ من أحواله ، يقال : رددته فارتدّ . قال تعالى : ﴿ ولا يُرَدُّ بأسُهُ عن القوم المجرمين ﴾ . فمِن الرّدّ بالذّات قولُه : ﴿ ولو رُدُّوا لعادوا لما نُهوا عنه ﴾ . ﴿ ثمّ رددنا لكم الكرّة ﴾ . وقال : ﴿ ردّوها علىّ ﴾ . وقال : ﴿ فرددناه إلى أمّه ﴾ . ﴿ ياليتنا نردّ ولا نكذّب ﴾ . ومِنَ الرّدّ إلى حالةٍ كان عليها قولُه : ﴿ يردّوكم على أدباركم ﴾ .... فالرّدّ كالرّجع : ﴿ ثمّ إليه ترجعون ﴾ .... وقوله تعالى : ﴿ لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفّارا ﴾ . أى يَرْجِعونكم إلى حال الكفر بعد أن

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٨٨ وتفسير ابن كثير ١ / ١٥٣ وانظر البحر المحيط ١ / ٣٤٧ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ ص ٥١٦ .

(٣) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانىّ ص ٥١٧ .

فارقتموه »[١] .

كفّارًا : مفعولٌ ثانٍ بيردّونكم[٢] .

حسدًا : مفعولٌ له . أى ودّوا ذلك للحسد . أو مصدر دلّ ما قبله على الفعل[٣] منصوبٌ على الحال أى حاسدين[٤] والأظهر القول الأوّل لأنّه اجتمعت فيه شرائط المفعول من أجله[٥] ويقول القرطبىّ[٦] : « الحسد نوعان : مذموم ومحمود . فالمذموم أن تتمنّى زوال نعمة الله عن أخيك المسلم . وسواءٌ تمنّيت مع ذلك أن تعود إليك أولا . وهذا النّوع الّذى ذمّه الله تعالى فى كتابه بقوله : ﴿ أم يحسدون النّاس على ما آتاهم الله من فضله ﴾ . وإنّما كان مذمومًا لأنّ فيه تسفيه الحقّ سبحانه ، وأنّه أنعم على من لا يستحقّ . وأمّا المحمود فهو ما جاء فى صحيح الحديث من قوله عليه السّلام : (لا حسد إلاّ فى اثنتين ، رجلٌ آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء اللّيل وآناء النّهار ، ورجلٌ آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء اللّيل وآناء النّهار) . وهذا الحديث معناه الغبطة . وكذلك ترجم عليه البخارىّ باب الاغتباط فى العلم والحكمة ، وحقيقتها أن تتمنّى أن يكون لك ما لأخيك المسلم من الخير والنّعمة ، ولا يزول عنه خيره . وقد يجوز أن يسمّى هذا منافسة . ومنه قوله تعالى : ﴿ وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ » .

من عند أنفسهم : قيل هو متعلّق بودّ . وقيل : بحسدًا[٧] ومعنى : من عند أنفسهم : من قبل أنفسهم[٨] ومن تلقائهم من غير أن يجدوه فى كتابٍ ولا أمروا به . ولفظة الحسد تعطى هذا ، فجاء من عند أنفسهم تأكيدًا وإلزامًا ، كما قال تعالى : يقولون بأفواههم ، يكتبون الكتاب بأيديهم ، ولا طائرٍ يطير بجناحيه[٩] .

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ ص ١٩٢ (٢) تفسير القرطبىّ ص ٤٥٩ .

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٥٤٩ وانظر البحر المحيط ١ / ٣٤٨ .

(٤) انظر البحر المحيط ١ / ٣٤٨ وتفسير الطّبرىّ ١ / ٣٨٩ ومعانى القرآن للفرّاء ١ / ٧٣ .

(٥) البحر المحيط ١ / ٣٤٨ (٦) تفسير القرطبىّ ص ٤٥٩ .

(٧) تفسير القرطبىّ ص ٤٥٩ وفى الكشّاف للزّمخشرىّ ١ / ٢٣٢ تفصيلٌ لهذا الرّأى .

(٨) تفسير ابن كثير ١ / ١٥٣ ومعانى القرآن للفرّاء ١ / ٧٣ .

(٩) تفسير القرطبىّ ص ٤٥٩ .

من بعد ما تبيّن لهم الحقّ : فى أمر محمّد ﷺ وما جاء به من عند ربّه والملّة الّتى دعا إليها[١] « وقال أبو العالية ... من بعد ما تبيّن أنّ محمّدًا رسول الله يجدونه مكتوبًا عندهم فى التّوراة والإنجيل فكفروا به حسدًا وبغيًا إذ كان من غيرهم . وكذا قال قتادة والرّبيع ابن أنس »[٢].

فاعفوا واصفحوا : يقول القرطبىّ[٣] : « العفو ترك المؤاخذة بالذّنب . والصّفح إزالة أثره من النّفس . صفحت عن فلانٍ إذا أعرضت عن ذنبه . وقد ضربت عنه صفحًا إذا أعرضت عنه وتركته ومنه قوله تعالى : ﴿ أفنضرب عنكم الذّكر صفحًا ﴾ » وإنّ الاستنتاج الموفّق الرّائع لمعنى العفو والصّفح بحاجةٍ منّا إلى بعض تفصيل وتبيين للخطوات الّتى تدرّجت فيها المعانى ابتداءً من المرحلة الحسّيّة إلى أن انتهت إلى هذه المرحلة المعنويّة ، فمع جملة « فاعفوا » أوّلاً . لقد كان ابن فارس موفّقًا كلّ التّوفيق فى دراسته لهذه المادّة « عفو » فى معجم مقاييس اللّغة . ومع أنّه ذهب أوّل الأمر إلى أنّ العين والفاء والحرف المعتلّ أصلان يدلّ أحدهما على ترك الشّىء ، والآخر على طلبه[٤] فقد عاد إلى القول بأنّ الأصلين يرجعان إلى معنًى ، وهو التّرك[٥] فلننظر إلى الأصل الأوّل الّذى يعنينا هنا . يقول[٦] : « فالأوّل : العفو : عفو الله تعالى عن خلقه ، وذلك تركه إيّاهم فلا يعاقبهم فضلاً منه . قال الخليل : وكلُّ من استحقّ عقوبةً فتركته فقد عفوتَ عنه . يقال : عفا عنه يعفو عفوًا . وهذا الّذى قاله الخليل صحيح ..... وقول القائل : عفا : درس ، وعفا : كثُر — وهو من الأضداد — ليس بشىء ، إنّما المعنى ما ذكرناه ، فإذا تُرِك ولم يُتَعَهَّدْ حتّى خفى على مرّ الدّهر فقد عفا ، وإذا تُرِك فلم يُقْطَعْ ولم يُجَزَّ فقد عفا[٧] والأصل فيه كلّه التّرك كما ذكرناه ..... وقال أهل اللّغة كلُّهم : يقال من الشَّعَر : عَفَوْته وعَفَيْته ، مثل قلوته وقليته ، وعفا فهو عافٍ ، وذلك إذا تركته حتّى يكثُر ويطول . قال الله تعالى : حتّى

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٨٩ وانظر تفسير القرطبىّ ص ٤٦٠ .
(٢) تفسير ابن كثير ١ / ١٥٣ (٣) تفسير القرطبىّ ص ٤٦٠ .
(٤) معجم مقاييس اللّغة «عفو» ٤ / ٥٦ (٥) انظر معجم مقاييس اللّغة «عفو» ٤ / ٦١ .
(٦) معجم مقاييس اللّغة لابن فارس « عفو » / ٥٦ — ٦٠ .
(٧) يعنى بذلك الصّوف والشّعر ونحوهما وسيأتى .

عَفَوْا ، أى نَمَوْ وكثُرُوا . وهذا يدلّ على ما قلناه : إنّ أصل الباب فى هذا الوجه التّرك » .

فإذا تحوّلنا إلى جملة « واصفحوا » تبيّنّا أنّ « الصّاد والفاء والحاء أصلٌ صحيحٌ مطّرد يدلّ على عَرْضٍ وعِرَض . مِنْ ذلك صُفْح الشّىء : « عُرْضُه »[١] وجانبه كصَفْحة الوجه وصَفْحة السّيف وصَفْحة الحجر . والصّفح : ترك التّثريب ، وهو أبلغ من العفو ، ولذلك قال : فاعفوا واصفحوا حتّى يأتى الله بأمره ، وقد يعفو الإنسان ولا يصفح ، قال : فاصفح عنهم وقل سلام ، فاصفح الصّفح الجميل ، أفنضرب عنكم صَفْحًا ، وصَفَحْتُ عنه أوليتُه منّى صَفْحَةً جميلةً مُعْرِضًا عن ذنبه »[٢] ويقول ابن فارس[٣] : « فأمّا قولهم : صَفَح عنه ، وذلك إعراضٌ عن ذنبه ، فهو من الباب ، لأنّه إذا أعرض عنه فكأنّه قد ولاّه صَفْحته وصُفحه ، أى عُرْضَه وجانبَه ، وهو مَثَل » .

حذّرت الآية الكريمة السّابقة المؤمنين من طرح الأسئلة الكثيرة على المصطفى ﷺ خوفًا من أن ينتهى الأمر بهم إلى التّورّط فيما تورّط فيه بنو إسرائيل مع موسى عليه الصّلاة والسّلام من كفر ، وبيّنت الآية الكريمة أنّ من يتبدّل الكفر بالإيمان فقد ضلّ سواء السّبيل . والآية الكريمة الّتى نحن بصددها تبيّن أنّ كثيرًا من أهل الكتاب ، وفى مقدّمتهم يهود منطقة المدينة المنوّرة ، يتمنّون للمؤمنين الارتداد فى الكفر بعد أن ذاق المؤمنون حلاوة الإيمان ، وبهذا هم يريدون للمؤمنين ما حذّرهم الله تعالى منه ، أن يضلّوا سواء السّبيل . ومع أنّ بنى إسرائيل على علمٍ تامٍّ بكون القرآن الكريم كلام ربّ العالمين ، فقد تبيّن لهم أنّه حقّ ، وأنّ المصطفى ﷺ الّذى أنزل الله تعالى عليه القرآن الكريم رسول ربّ العالمين وعلى الحقّ المبين ، فقد رغب بنو إسرائيل الّذين لا يريدون تصديق النّبىّ ﷺ فى الطّعن على القرآن الكريم من جهة النّسخ ، لأنّ فى رفض النّسخ قوّةً لهم فى عدم تصديقهم له ﷺ حيث إنهم لا يصدّقون بأنّ ثمّةَ كتابًا سماويًا ناسخًا للتّوراة ، ودينًا سماويًّا ناسخًا لليهوديّة . والآية الكريمة تنصّ على باعث الحسد الّذى دفع بنى إسرائيل إلى هذا الموقف ،

---

(١) معجم مقاييس اللّغة لابن فارس « صفح » ٣ / ٢٩٣ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى ص ٢٨٢ .

(٣) معجم مقاييس اللّغة « صفح » ٣ / ٢٩٣ .

وتقرّر النّسخ وذلك فى قول الحقّ جلّ وعلا : « فاعفوا واصفحوا حتّى يأتى الله بأمره » فمع حبّات عقد الآية الكريمة :

تبيّن الآية الكريمة أنّ كثيرًا من أهل الكتاب ، يتمنّون لو ردّوا المؤمنين من بعد إسلامهم وإيمانهم إلى الكفر والعياذ بالله . ومع أنّ جملة ودّ تفيد معنى جملة أحبّ وجملة تمنّى ، فيكون المعنى تمنّى كثيرٌ من أهل الكتاب وأحبوا أن يردّوكم أيّها المؤمنون عن دين الإسلام ، فإنّ المتأمّل لجملة أحبّ يتبيّن أنّها ربّما كانت أكثر ارتباطًا بالأمر المحبوب لكونه أهلاً لأن يحبّ لذاته ، والمتأمّل لجملة تمنّى يتبيّن أنّها ربّما كانت أكثر ارتباطًا بالأمر الّذى هو أقرب إلى التّمنّى والتشهّى لبعد مناله . وبما أنّ أهل الكتاب على علمٍ بأنّهم إنّما يريدون للمؤمنين أن يستبدلوا الّذى هو أدنى بالّذى هو خير بارتدادهم — لا سمح الله تعالى — عن دين الإسلام ، وعلى علمٍ ، بسبب حسدهم للمؤمنين ورغبتهم العارمة الّتى أعمتهم عن طريق الحقّ والصّراط المستقيم ، بأنّهم ربّما تحقّق لهم ما يريدون من ارتداد للمؤمنين عن دين الإسلام ، فليس ما يريدون من باب التّمنّى الّذى لا يتحقّق بالكلّيّة ، بدليل أنّ أهل الكتاب حتّى يوم النّاس هذا أحرص الخلق على أن يرتد المؤمنون عن دين الإسلام ، لكلّ ذلك تبيّنّا أنّ الآية الكريمة تستعمل جملة « ودّ » الّتى تدلّ من ناحيةٍ على الشّرّ الّذى يضمره أهل الكتاب للمؤمنين بدافع الحسد ، وذلك على غرار القول : ودّ فلانٌ لفلانٍ الشّرّ ، والّتى تدلّ من ناحيةٍ أخرى على رغبة هذا الفريق من أهل الكتاب العارمة ، بدافع الحسد والبغضاء للمؤمنين ، للدّرجة الّتى تخيّلوا معها الأمانى المستحيلة ، وأحلام اليقظة أمورًا جائزة التّحقيق . ومع أنّ الخطاب فى الآية الكريمة يتّجه أساسًا إلى المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ ، بدافع التّحذير من الّذين كفروا من أهل الكتاب ، فإنّها تتّجه وراء ذلك إلى كلّ المؤمنين فى كلّ زمانٍ ومكان ، بقصد تحذيرهم من هذه الرّغبة الآثمة للكثير من أهل الكتاب من اليهود والنّصارى ، وحثّهم على التمسّك بنعمة الله تعالى الكبرى الّتى أتمّها عليهم وهى نعمة الإسلام ، وعلى العمل من أجل نشر هذا الدّين الّذى رضيه الله تعالى لعباده كى يتحقّق وعد الله تعالى الحقّ بأن يظهر هذا الدّين على الدّين كلّه ولو كره المشركون . وتعتبر لو المصدريّة الّتى نشتمّ منها معنى التّمنّى قوّةً لجملة « ودّ »

فهى على سبيل المثال تقوم بدور « أنْ » مثلاً وتضيف إلى ذلك الإيحاء بالتّمنّى .

وسبق أن عرفنا أنّ جملة « ردّ » تفيد هنا العودة إلى حالةٍ سابقة ، بمعنى أنّ كثيرًا من أهل الكتاب يودّون للمؤمنين أن يرتدّوا عن الإسلام وأن يعودوا كفّارًا ، وهى الحال الّتى كانوا عليها قبل أن يمنّ الله تعالى على المؤمنين بأن بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلالٍ مبين . وبهذا يتبيّن أنّ الآية الكريمة تضيف إلى التّحذير من أهل الكتاب التّنبيه إلى وجوب قيام المؤمنين بما يجب عليهم من شكرٍ لله تعالى على نعمه العظيمة وآلائه الجسيمة حيث قد بعث إليهم أشرف رسله وأنزل عليهم آخر كتبه . وتبدو قيمة التّحذير من ودّ الكثير من أهل الكتاب للمؤمنين أن يرتدّوا كفّارًا ، حينما نضع بجواره التّحذير فى الآية الكريمة السّابقة من الله تعالى للمؤمنين أن يتبدّلوا الكفر بالإيمان وذلك فى القول : ﴿ ومن يتبدّل الكفر بالإيمان فقد ضلّ سواء السّبيل ﴾ .

وتعيّن الآية الكريمة الباعث للكثير من أهل الكتاب على هذه النيّة السّيّئة والعمل المشين ، إنّه الحسد . والحسد شرٌّ كلّه ، ولا يقتصر أثره السّيّئ على المحسود إنّما يتجاوزه إلى الحاسد ذاته . والقرآن الكريم يحذّر من شرّ الحاسد إذا حسد . قال تعالى[1] : ﴿ قل أعوذ برب الفلق . من شرّ ما خلق . ومن شرّ غاسقٍ إذا وقب . ومن شرّ النّفّاثات فى العقد . ومن شرّ حاسدٍ إذا حسد ﴾ ومع أنّ الباعث على الحسد النّفس الأمّارة بالسّوء والشّيطان الرّجيم ، فليس ثمّة توجيهٌ إلى الحسد من كتابٍ سماوىّ ولا دين ، فإنّ الآية الكريمة تعمّق هذه المعانى الفطريّة الّتى توحى بها لفظة ﴿ حسدًا ﴾ فى الآية الكريمة وذلك بالقول ﴿ حسدًا من عند أنفسهم ﴾ إنّ الباعث للقوم على الحسد هو أنفسهم الأمّارة بالسّوء الّتى غدت أداةً طيّعةً للشّيطان الرّجيم عليه لعنة الله تعالى . وكيف لا يكون حسد أهل الكتاب للمؤمنين هو من عند أنفسهم وإنّ رسالة المصطفى ﷺ للنّاس كافّة ، بل إنّ المصطفى ﷺ ليدعوهم بشخصه الكريم إلى دين الإسلام ، فلا يزدادون إلاّ تماديًا فى الإعراض وتبييت النّيّة على الشّرّ والغدر .

---

(١) سورة الفلق .

وتضيف الآية الكريمة إلى تعيين الباعث لأهل الكتاب على تمنيّهم أن يرتدّ المسلمون عن دين الإسلام ، وهو باعث الحسد ، وتحديد مصدره ، وهو نفوسهم الأمّارة بالسّوء ، تضيف الآية الكريمة إلى كلّ ذلك ما يفيد أنّ حسد أهل الكتاب للمؤمنين الصّادر من ذوات أنفسهم لم يكن وليد الجهل بصدق المصطفى ﷺ وصحّة القرآن الكريم ، بل كان وليد التّبيّن الواضح الأكيد للحقّ الأبلج الجلىّ ، يكون دين الإسلام ، الّذى جاء به محمّد ﷺ ، الّذى تعتبر معجزته الكبرى الخالدة القرآن الكريم كلام ربّ العالمين ، هو الدّين السّماوىّ الحقّ . هل هنالك من عذرٍ لبنى إسرائيل سكّان المنطقة آنذاك حينما يعملون بكلّ الوسائل على أن يرتدّ المسلمون عن الإسلام ، وأن يعودوا كفّارا كما كانوا فى جاهليّتهم الجهلاء — ويلاحظ أنّ بنى إسرائيل يهمّهم أن يرتدّ المسلمون ، ولا يهمّهم أن يكونوا يهودًا مثلاً ، المهمّ أن يخرجوا من دين الإسلام — من بعد ما تبيّن للقوم الحقّ وهم الّذين يدعوهم المصطفى ﷺ إلى الإسلام جهاراً ، إنّ الآية الكريمة تبيّن خبث طويّة القوم وحرصهم على ارتداد المسلمين مع سبق الإصرار رغم علمهم أنّ المسلمين على صواب فى ثلاث صور ، تتضمّن الثانية ما تفيده الأولى وتضيف جديدًا ، وتتضمّن الثالثة ما تفيده الأولى والثانية وتضيف جديدًا : ﴿ حسدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبيّن لهم الحقّ ﴾ .

وانظر إلى فضل الله تعالى العميم على عباده ، وفيهم كافرو النّعم جاحدو الحقّ حينما تأمر الآية الكريمة المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ بأن يعفوا ، وبأن يصفحوا حتّى يأتى الله بأمره . ومن أهمّ ما يلاحظ بشأن هذا الفضل العميم من الله تعالى على عباده أنّه ذو ثلاث صور ، وذلك على غرار الثّلاث الصّور الّتى تجلى فيها موقف بنى إسرائيل السّيّئ من الدّعوة إلى صراط العزيز الحميد . والعجيب فى أمر هذه الصّور الثّلاث لفضل الله تعالى العميم أنّه يتّجه من الحسن إلى الأحسن دائمًا وذلك بعكس اتّجاه الصّور الثّلاث لموقف بنى إسرائيل المتّجه من السّيّئ إلى الأسوأ دائمًا . إنّ الصّفة الأولى من الموقف السّيّئ لبنى إسرائيل الحسد ، ويقابل هذه الصّورة السّيّئة الموقف الحسن فى هيئة الخطاب للمؤمنين « فاعفوا » وإنّ الصّفة الثّانية الأسوأ تتجلّى فى القول : ﴿ من عند أنفسهم ﴾ ويقابلها الموقف الأحسن فى القول :﴿ واصفحوا ﴾ وإنّ الصّفة الثّالثة الأشدّ سوءً تتجلّى فى

القول : ﴿ من بعد ما تبيّن لهم الحقّ ﴾ ويقابلها الموقف الأشدّ حسنًا فى القول : ﴿ حتّى يأتى الله بأمره ﴾ ويقوّى هذا الموقف التّذييل فى الآية الكريمة : ﴿ إنّ الله على كلّ شيء قدير ﴾ وينبغى أن نتدبّر ما يخصّ الموقف الثّالث : ﴿ حتّى يأتى الله بأمره إنّ الله على كلّ شيء قدير ﴾ فى ضوء الظّروف والملابسات الّتى نزلت فيها الآية الكريمة ، فقد كان دائمًا وأبدًا لدى المصطفى ﷺ ولدى المؤمنين الأمل الكبير فى أن يتحوّل سكّان المنطقة من بنى إسرائيل مسلمين لله ربّ العالمين حتّى أيسأهم الله تعالى من إسلام القوم فى هيئة الجماعة وإن كان بعضهم قد اعتنق الإسلام فى هيئة الأفراد . إنّه بالنّظر إلى هذا الموقف الثّالث فى ظلّ فضل الله تعالى المتدرّج إلى الأحسن دائمًا ، وفى ضوء حال القوم آنذاك وقبل الوقوف على نسخ هذا المعنى الآية الكريمة والأمر بقتال ﴿ الّذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحقّ من الّذين أوتوا الكتاب حتّى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ﴾[1] ، نستطيع أن نفهم أنّ حظ القوم لو آمنوا سيكون مثل حظّ غيرهم من الكافرين بعد أن آمنوا حينما أصبحوا إخوةً للمؤمنين . ألم يصبح كفّار مكّة بعد أن آمنوا إخوةً للمؤمنين من المهاجرين والأنصار ؟ إنّ حال بنى إسرائيل غيرُ بعيدٍ من حال كفّار قريشٍ الّذين جاء عنهم فى سورة الممتحنة[2] . قوله تعالى : ﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الّذين عاديتم منهم مودّة ، والله قديرٌ والله غفورٌ رحيم ﴾ .

إنّ هؤلاء الكفّار بعد أسلموا حلّت المودّة بقدرة الله تعالى وغفرانه ورحمته محلّ العداوة بينهم وبين المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ . لقد كان فى الإمكان ، لو تحوّل بنو إسرائيل مسلمين لله ربّ العالمين ، كما حصل فعلاً للأفراد الّذين أسلموا ، أن يكون حظّهم من مودّة المسلمين لهم موفورًا . لقد كان ذلك هو المتوقّع من بنى إسرائيل لأنّهم أهل كتابٍ وهو المنتظر منهم نتيجةً حتميّةً لعفو المسلمين عنهم بإذن الله تعالى وصفحهم عنهم . والّذى حصل من بنى إسرائيل خلافٌ لكلّ توقّع فقد قابلوا الإحسان بالإساءة والعفو والصّفح بالعداوة والكيد للإسلام والمسلمين . ومع أنّ صفة القدرة قد استعملت

---

(١) سورة التّوبة ٢٩ (٢) الآية ٧ .

فى حقّ كلٍّ من كفّار قريش واليهود . فقد تجلّت قدرة الذّات العليّة المطلقة ، فى حقّ كفّار قريش واليهود ، بسبب ارعوائهم إلى طريق الرّشد ، فى هيئة المودّة الّتى حلّت بينهم وبين المسلمين محلّ العداوة . بينما تجلّت فى حقّ اليهود الّذين اتّخذوا سبيل الغىّ سبيلا فى مثل هذه الآية الكريمة النّاسخة للآية الكريمة الّتى نحن بصددها . قال تعالى[1] : ﴿ قاتلوا الّذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحقّ من الّذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ﴾ .

فلنمض خطوةً خطوةً مع صور الفضل الثلاث . وهذه هى أولى الصّور : « فاعفوا » لقد عرفنا أنّ الأصل اللّغوىّ لهذه المادّة يفيد التّرك ، وأنّ معنى القول : « فاعفوا » عليكم أيّها المؤمنون بقيادة المصطفى ﷺ أن تمتثلوا أمرى بأن تعفوا عن أهل الكتاب ، وأن تتركوا مؤاخذتهم على إساءاتهم إليكم ، وألاّ تعاقبوهم بذنوبهم فى حقّكم ، إنّ هذا الأمر من الله تعالى للمؤمنين بأن يعفوا عن أهل الكتاب الّذين يتمنّون أن يرتدّ المسلمون عن الإسلام بدافع الحسد لهم ، ليس بالأمر البسيط الهيّن بل هو أمرٌ من الجلال والخطورة بمكان .

والمعروف أنّ فضل الله العميم تجاوز هذه المرحلة الجليلة الخطر إلى مرحلةٍ تليها ، وقد تبيّنّا أنّ الزّيادة فى الفضل ، وذلك فى القول : « واصفحوا » فى مقابل زيادة بنى إسرائيل فى السّوء وتماديهم فى الشّرور الّتى أشار إليها القول : « من عند أنفسهم » وقد عرفنا أنّ الأمر بالصّفح ذو علاقةٍ بصفحة الوجه حينما يتفضّل الّذى وصل إليه الأذى ولحقه الأسى بالتّعبير عن زوال أثر الإساءة من نفسه بالكلّيّة فى هيئة التّغاضى عن المسىء والتّغافل عن المذنب بتوليته المسىء إليه ، المذنب فى حقّه ، صفحة وجهه ، بمعنى جانب وجهه ، فليس ثمّة من هذا الوجه تجهّمٌ وانقباض ، وليس ثمّة من ذلك الشّخص إعراضٌ أو إدبار . إنّما يأتى من ذلك الشّخص مرحلةٌ تلى مرحلة ترك المؤاخذة بالذّنب ، وهى مرحلةٌ تدلّ على زوال أثر الذّنب من النّفس ، وتتّخذ لها شكلاً يعتبر منتهى ما يسمح به الموقف وخير ما يجود به الحال وأقرب ما يمكن تناوله . إنّ الإعراض بالوجه غير مستساغ ، وإنّ الإدبار

---

(١) سورة التّوبة ٢٩ .

أمرٌ منهيٌّ عنه ، وإنّ أوْلى أشكال الوجه وأقربها تولية المسيء صفحة الوجه بمعنى جانبه . ولا ننسى أنّ أشرف أجزاء الجسم الوجه . وإنّ هذا الجزء الشّريف من الجسم هو الّذى يتّخذ أداةً للتّعبير عن غايةٍ ساميةٍ وهدفٍ نبيل ، ذاكم هو التّسامح الإسلامىّ ، بقصد أن يتوب المذنبون إلى الله تعالى توبةً نصوحًا وأن يتحوّلوا مسلمين لله ربّ العالمين وأن يكفّروا عن سيّئاتهم .

إنّ بنى إسرائيل لو قابلوا الإحسان بالإحسان لفازوا بالحياتين ، ولكنّهم قابلوا الإحسان بالإساءة ، وتمادوا فى غيّهم ، و لم يستفيدوا من إمهال الله تعالى لهم فى قول الحقّ جلّ وعلا ﴿ حتّى يأتى الله بأمره إنّ الله على كلّ شيءٍ قدير ﴾ إنّهم بسبب كفرهم تحقّق فيهم نسخ هذه الآية الكريمة الّتى دعت المؤمنين إلى العفو وإلى الصّفح فأمروا بأن يقاتلوا كافرى أهل الكتاب ومشركيهم . وإليك ما يقول القرطبىّ بشأن نسخ الآية الكريمة ، وآراء العلماء فى هذا الشّأن ، وبعض مظاهر عفو المسلمين بقيادة المصطفى ﷺ وصفحهم . يقول رحمه الله تعالى رحمةً واسعة[1] : « هذه الآية منسوخة بقوله : ﴿ قاتلوا الّذين لا يؤمنون ﴾ . إلى قوله ﴿ صاغرون ﴾ . عن ابن عبّاس : وقيل : النّاسخ لها : ﴿ فاقتلوا المشركين ﴾[2] قال أبو عبيدة : كلّ آية فيها تركٌ للقتال فهى مكّيّة منسوخةٌ بالقتال .

قال ابن عطيّة : وحكمه بأنّ هذه الآية مكّيّةٌ ضعيف لأنّ معاندات اليهود إنّما كانت بالمدينة .

قلت : وهو الصّحيح . روى البخارىّ ومسلم عن أسامة بن زيد أنّ رسول الله ﷺ ركب على حمارٍ عليه قطيفة فدكيّة وأسامة وراءه يعود سعد بن عبادة فى بنى الحارث بن الخزرج قبل واقعة بدر ، فسارا حتّى مرّا بمجلسٍ فيه عبد الله بن أبىّ ابن سلول ــ وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبىّ ــ فإذا فى المجلس أخلاطٌ من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود. وفى المسلمين عبد الله بن رواحة. فلمّا غشيت المجلس عجاجة الدّابّة خمّر ابن أبىّ أنفه بردائه وقال : لا تغبّروا علينا ! فسلّم رسول الله ﷺ ثمّ وقف فنزل فدعاهم إلى الله تعالى وقرأ عليهم القرآن فقال له عبد الله بن أبىّ ابن سلول : أيّها المرء لا أَحْسَنَ ممّا

(١) تفسير القرطبىّ ص ٤٦٠ (٢) الآية ٥ من سورة التّوبة .

تقول إن كان حقًّا ! فلا تؤذنا به فى مجالسنا ، فمن جاءك فاقصص عليه . قال عبد الله بن رواحة : بلى يا رسول الله فاغشنا فى مجالسنا فإنّا نحبّ ذلك . فاستبّ المشركون والمسلمون واليهود حتّى كادوا يتثاورون . فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتّى سكنوا . ثمّ ركب رسول الله ﷺ دابّته فسار حتّى دخل على سعد بن عبادة . فقال رسول الله ﷺ : ألم تسمع إلى ما قال أبو حباب ؟ — يريد عبد الله بن أبىّ — قال كذا وكذا . فقال : أى رسول الله ، بأبى أنت وأمّى ، اعف عنه واصفح . فوالّذى أنزل عليك الكتاب بالحقّ لقد جاءك الله بالحقّ الّذى أنزل عليك ولقد اصطلح أهل هذه البُحَيْرة[1] على أن يتوّجوه ويعصّبوه بالعصابة ، فلمّا ردّ الله ذلك بالحقّ الّذى أعطاك شرق ، فلذلك فعل ما رأيت ، فعفا عنه رسول الله ﷺ . وكان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله تعالى ويصبرون على الأذى . قال الله عزّ وجلّ : ولتسمعنّ من الّذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الّذين أشركوا أذًى كثيرا . وقال : ودّ كثيرٌ من أهل الكتاب . فكان رسول الله ﷺ يتأوّل فى العفو عنهم ما أمره الله به حتّى أذن له فيهم ..... » .

ونودّ أن نختم دراستنا المتأمّلة للآية الكريمة بالإشارة السّريعة إلى بعض الأمور . ومن هذه الأمور أنّنا نصادف جملة أتى فى القول : ﴿ فاعفوا واصفحوا حتّى يأتى الله بأمره ﴾ والمعروف أنّ جملة أتى لا تستعمل فى القرآن الكريم إلاّ دليلاً على البعد ، الزّمانّى ، أو المكانّى أو المعنوىّ . وهى هنا تتعلّق فى المقام الأوّل بالبعد الزّمانّى ، فثمّة إمهالٌ من الله تعالى للقوم بقصد أن يعودوا إلى جادّة الصّواب ، ويعتبر ذلك متوّجًا للأمر بالعفو وبالصّفح . ومن هذه الأمور أنّ الآية الكريمة تنعت أصحاب المصطفى ﷺ الّذين يتّجه إليهم الحديث أساسًا بالإيمان وذلك فى القول : ﴿ من بعد إيمانكم ﴾ وهذه شهادةٌ من الحقّ جلّ وعلا للصّحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين بالإيمان . والمعروف أنّ الخطاب وراء ذلك ينسحب على المؤمنين فى كلّ زمانٍ ومكان . ومن هذه الأمور أنّ الآية الكريمة

---

(١) البُحَيْرة تصغير البَحْرة وهى مستنقع الماء ومجتمعه ، والبلدة المنخفضة ، والرّوضة العظيمة . وهذه صفاتٌ تتحقّق فى المدينة المنوّرة .

تستعمل جملة « ودّ » مع تمنّى كثيرٍ من أهل الكتاب أن يردّوا المؤمنين كفّارا . ومعروفٌ أنّ الارتداد إلى الكفر — لا سمح الله — لا يعنى بالضّرورة التّحوّل إلى اليهوديّة أو إلى النّصرانيّة ، فهل هذا هو منتهى ما يتمنّى الكثير من أهل الكتاب ؟ وهل هذا هو الّذى يُرْضى القوم ؟ إليك الجواب الشّافى من القرآن الكريم . قال عزّ من قائل[1] : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النّصارى حتّى تتّبع ملّتهم ، قل إنّ هدى الله هو الهدى ، ولئن اتّبعت أهواءهم بعد الّذى جاءك من العِلْم مالك من الله من ولىٍّ ولا نصير ﴾ من الآية الكريمة يتّضح أنّ الّذى يُرْضى اليهود والنّصارى هو أن يتحوّل المسلمون يهودًا أو نصارى . فإذا عجزوا عن تحقيق هذا الهدف فلا مانع من أن يسعوا إلى هدفٍ أقرب يؤدّى فى تقديرهم إلى الهدف الأبعد وقتًا من الأوقات ، أمّا هذا الهدف الأقرب فهو الّذى عبّرت عنه الآية الكريمة الّتى نحن بصددها بالقول : ﴿ ودّ كثيرٌ من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفّارًا حسدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبيّن لهم الحقّ ﴾ أمّا الّذى يبغضه اليهود والنّصارى ومن لفّ لفّهم فهو أن يتمسّك المؤمنون بإيمانهم .

وبناءً على ذلك يتبيّن أنّ كلّ أنواع الحروب الّتى تشنّ على المسلمين فى كلّ زمانٍ ومكان ، إنّما تهدف إلى تحقيق ما يودّ القوم ، وهو الهدف القريب ، بأن يرتدّ المسلمون عن دين الإسلام ، وإلى تحقيق ما يرضى القوم ، وهو الهدف البعيد ، بأن يتحوّل المسلمون يهودًا أو نصارى . وفى هذا العصر الّذى نعيشه يحقّق خصوم الإسلام الكثير من النّجاح بشأن ما يودّون وما يرضيهم . إنّ موجات التّنصير كاسحةٌ فى الكثير من الأصقاع بين المسلمين ، وإنّ الخطوة الأولى الّتى يتّخذها القوم هى أن يخرجوا المسلمين من الإسلام أوّلاً ، وإنّ نجاح الخصوم فى هذا المجال أكبر من نجاحهم فى الميدان الآخر ، وهو لا يقلّ خطورة ، لأنّه يؤدّى إلى الخطوة التّالية ، فعلى المسلمين أن يعدّوا للأمر العدّة — مستعينين بالله تعالى — قبل فوات الأوان .

---

(١) سورة البقرة ١٢٠ .

الآيــة رقــم (١١٠)

قال تعالى : ﴿وأقيموا الصّلاة وآتوا الزّكاة وما تقدّموا لأنفسكم من خيرٍ تجدوه عند الله ، إنّ الله بما تعملون بصير ﴾ .

طلبت الآية الكريمة السّابقة من المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ أن يعفوا ويصفحوا عن أهل الكتاب بعامّة الّذين يودّون لو يرتدّ المسلمون عن دين الإسلام كفّارًا حسدًا من عند أنفسهم ، عن اليهود بخاصّة باعتبارهم آنذاك مجاورين للمسلمين ، حتّى يأتى الله سبحانه وتعالى بأمره ، وقد عرفنا أنّ جملة « أتى » يرتبط بها البُعْد الزّمانىّ هنا ، وقد أتى أمر الله تعالى فى حقّ أهل الكتاب بعامّة ، الّذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ، وفى حقّ اليهود بخاصّة ، وقد نصّت سورة الحشر على أنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذى أخرج يهود بنى النّضير من ديارهم لأوّل الحشر ، وهو جلّ وعلا الّذى كتب عليهم الجلاء وقد كان المؤمنون بقيادة المصطفى ﷺ هم المنفذون لإرادة الله تعالى وأمره ، وهم الّذين سلّطهم الله تعالى سنة أربع من الهجرة على يهود بنى النّضير[1] كما نصّت سورة الأحزاب على أنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذى أنزل يهود بنى قريظة من حصونهم وقذف في قلوبهم الرّعب ، على غرار الرّعب الّذى سبق أن قذفه جلّ وعلا فى قلوب بنى النّضير . لقد كان المؤمنون بقيادة المصطفى ﷺ هم الّذين سلّطهم الله تعالى سنة خمسٍ من الهجرة على يهود بنى قريظة ، بسبب غدرهم وعدم اتّعاظهم بمصير الغادرين من قبلهم كبنى النّضير[2] .

والآية الكريمة الّتى نحن بصددها تأمر المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ بأن يقيموا الصّلاة ويؤتوا الزّكاة . وحينما نتبيّن أنّ الصّلاة عماد العبادة البدنية ، وأنّ الزّكاة عماد العبادة الماليّة ، ندرك أنّ الآية الكريمة قد اختارت من بين مظاهر العبادة فى الإسلام المتعدّدة

---

(١) سورة الحشر ٢ ــ ٦ وانظر السّيرة النّبويّة لابن هشام ٣ / ١٩١ .

(٢) سورة الأحزاب ٢٦ ، ٢٧ وانظر السّيرة النّبويّة لابن هشام ٣ / ٢٥٢ .

أهمّها ، بقصد لفت الانتباه إلى أهميّة كلٍّ من الصّلاة والزّكاة من ناحية ، وبقصد لفت الانتباه إلى تحقيق الهدف الأسمى الّذى خلق الله سبحانه وتعالى الجنّ والإنس من أجله ألا وهو عبادة الله تعالى وحده لا شريك له من ناحيةٍ أخرى .

وتتجاوز الآية الكريمة الأمر بإقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة إلى الحثّ على فعل الخيرات وتقديمها . وكأنّ الآية الكريمة بانتقائها ركنين من أركان الإسلام الخمسة ، وهما الصّلاة والزّكاة ، تحثّ على القيام ببقيّة الأركان وأدائها خير أداء . وكأنّ الآية الكريمة بحثّها على الخيرات وتقديمها والتّنبيه على ثواب الله تعالى الجزيل عليها ، تنبّه إلى الطّاعات والنّوافل وما أكثرها . وقد جاء فى سورة الحجّ الأمر بفعل الخيرات . قال تعالى[1] : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربّكم وافعلوا الخير لعلّكم تفلحون ﴾ والملاحظ بشأن آية سورة الحجّ أنّها تجمع فى نسق بين الصّلاة ، وبين العبادة وفعل الخيرات . والملاحظ بشأن آية سورة البقرة أنّها تجمع فى نسقٍ بين الصّلاة والزّكاة وبين فعل الخيرات ، وكأنّ ثمّة تنبيهًا إلى معنى العبادة الواسع فى الإسلام على نحو ما بيّنه المصطفى ﷺ . فكلّ عملٍ طيّب صالحٍ يقوم به المؤمن وهو يريد به وجه ربّه الأعلى ، بما فى ذلك لقمة الطّعام يضعها المرء فى فى زوجته يعتبر كلّ ذلك داخلاً فى مفهوم العبادة فى الإسلام . وبهذا يتبيّن أنّ أركان الإسلام الأربعة بعد الشّهادتين ـ تنصّ على أركان العبادة الرّئيسيّة فى الإسلام ، ويلج من باب العبادة الواسع فى الإسلام بعد ذلك كلّ الطّاعات ، وكلّ أنواع الخير الّتى يقدّمها المرء بين يديه . إنّ ثواب كلّ ذلك سوف يجده المؤمن عند الله تعالى يوم القيامة ، يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلبٍ سليم . (جاء فى الحديث : إنّ العبد إذا مات قال النّاس : ما خلّف ؟ وقالت الملائكة : ما قدّم) ؟ وخرّج البخارىّ والنّسائىّ عن عبد الله قال . قال رسول الله ﷺ : (أيُّكم مال وارثه أحبّ إليه من ماله ؟ قالوا : يا رسول الله ما منّا من أحدٍ إلاّ ماله أحبّ إليه من مال وارثه . قال رسول الله ﷺ : ليس منكم من أحدٍ إلاّ مال وارثه أحبّ إليه من ماله . مالك ما قدّمت ، ومال وارثك ما أخّرت)[2] .

---

(١) سورة الحج ٧٧

(٢) تفسير القرطبىّ ص ٤٦٢ .

ويقرّر التّذييل فى الآية الكريمة : ﴿ إنّ الله بما تعملون بصير ﴾ أنّ الله سبحانه وتعالى بصيرٌ بكلّ ما يأتيه الخلق وما يدعونه ، لا يخفى عليه جلّ وعلا شيءٌ من الأعمال والنّيات ، وسيجازى كلاً بعمله ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشرّ. وبشأن المؤمنين الّذين أقاموا الصّلاة وآتوا الزّكاة وقدّموا الخيرات ، قد صدقهم الله تعالى وعده ، وكفاهم شرور أهل الكتاب الّذين ودّوا لو يردّون المؤمنين كفّارا . لقد جاء أمر الله تعالى للمؤمنين بقتال الّذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحقّ من الّذين أوتوا الكتاب حتّى أعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون .

ومعروفٌ أنّ الجزيرة فى صدر الإسلام لم يقرّ قرارها إلاّ بإجلاء اليهود من المناطق القريبة من مهبط الوحى ومهده .

ويلاحظ بشأن التّذييل أنّ لفظ الجلالة يجىء فيه بصريح اللّفظ ، مع إمكان مجىء الضّمير الّذى يعود إلى لفظ الجلالة فى الآية الكريمة : ﴿ وما تقدّموا لأنفسكم من خيرٍ تجدوه عند الله ، إنّ الله بما تعملون بصير ﴾ إنّ فى مجىء لفظ الجلالة دليلاً على استقلال الجمل ، فلذلك جاء : إنّ الله ، ولم يجىء إنّه ، مع إمكان ذلك فى الكلام[1] .

الآيــة رقــم (١١١)

قال تعالى : ﴿ وقالوا لن يدخل الجنّة إلاّ من كان هودًا أو نصارى ، تلك أمانيّهم ، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ .

سبب النّزول .

سبب نزولها اختصام نصارى نجران ويهود المدينة وتناظرهم بين يدى الرّسول ﷺ ، فقالت اليهود ليست النّصارى على شىء ، وقالت النّصارى ليست اليهود على شىءٍ وكفروا . وكفروا بالتّوراة وموسى . قاله ابن عبّاس[2] .

وقالوا لن يدخل الجنّة إلاّ من كان هودًا أو نصارى : المعنى وقالت اليهود لن يدخل

---

(١) البحر المحيط ١ / ٣٤٩ (٢) البحر المحيط ١ / ٣٥٠ .

الجنّة إلاّ من كان يهوديًّا ، وقالت النّصارى لن يدخل الجنّة إلاّ من كان نصرانيًّا[١] وقال الأخفش[٢] : « وجعل من كان واحدًا ، لأنّ لفظ مَنْ واحد ، وجمع فى قوله هودًا أو نصارى » حملاً على المعنى[٣] لأنّ معنى من جمع[٤] .

هودًا : هود جمع هائد مثل ناقةٌ عائذٌ وعوذ ، وحائلٌ وحُول ، وبازلٌ وبُزْل[٥] وغائطٌ وعوط[٦] والهائِدُ فى الأصل التّائب الرّاجع إلى الحق[٧] مِنْ هاد يهود ، إذا تاب هَوْدًا . وسُمُّوا به لأنّهم تابوا عن عبادة العجل . وفى القرآن : إنّا هدنا إليك[٨] أى تُبْنا . قال بعضهم : يهودُ فى الأصل من قولهم : هُدْنا إليك ، وكان اسمَ مَدْحٍ ثمّ صار بعد نسخ شريعتهم لازمًا لهم ، وإن لم يكن فيه معنى المدح[٩] وبشأن القول : ﴿ وقالوا لن يدخل الجنّة إلاّ من كان هودًا أو نصارى ﴾ يقول الزّمخشرىّ[١٠] : « فلفّ بين القولين ثقةً بأنّ السّامع يردّ إلى كلّ فريقٍ قوله ، وأمنًا من الإلباس لِما عُلِمَ من التّعادى بين الفريقين وتضليل كلّ واحدٍ منهما لصاحبه ، ونحوه : وقالوا كونوا هودًا أو نصارى تهتدوا » « إذ معلومٌ أنّ اليهودىّ لا يأمر بالنّصرانيّة ، ولا النّصرانىّ يأمر باليهوديّة »[١١] « ولذلك جاء فى العطف بأو الّتى هى للتّفصيل والتّنويع »[١٢] .

تلك : يشار بها إلى الواحدة المفردة وإلى الجمع غير المسلّم من المذكّر والمؤنّث[١٣] والأظهر أنّ تلك إشارةٌ إلى مقالتهم : لن يدخل الجنّة . أى تلك المقالة[١٤] .

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٤٦٣ (٢) معانى القرآن ١ / ١٤٤ .

(٣) انظر البحر المحيط ١ / ٣٥٠ (٤) تفسير القرطبىّ ص ٤٦٣ .

(٥) معانى القرآن للأخفش ١ / ١٤٤ والعائذ من الإبل الحديثة النّتاج . والنّاقة الحائل الّتى حمل عليها الفحل فلم تلقح . والبازل هى الّتى انشقّ نابها .

(٦) تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٩٢ وانظر معانى القرآن للفرّاء ١ / ٧٣ والعائط من النّوق هى الحائل الّتى حمل عليها الفحل فلم تلقح .

(٧) معانى القرآن للأخفش ١ / ١٤٤ (٨) معجم مقاييس اللّغة « هود » ٦ / ١٨ .

(٩) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ ص ٥٤٦ (١٠) الكشّاف ١ / ٢٣٣ .

(١١) البحر المحيط ١ / ٣٥٠ (١٢) البحر المحيط ١ / ٣٥٠ .

(١٣) البحر المحيط ١ / ٣٥٠ (١٤) البحر المحيط ١ / ٣٥١ .

أمانيّهم : يقول الزّمخشرىّ[١] : « فإن قلت : لم قيل : تلك أمانيّهم ، وقولهم : لن يدخل الجنّة أمنيّة واحدة قلت : أشير بها إلى الأمانى المذكورة ، وهو أمنيّتهم ألاّ ينزل على المؤمنين خيرٌ من ربّهم ، وأمنيّتهم أن يردّوهم كفّارًا ، وأمنيّتهم ألاّ يدخل الجنّة غيرهم ، أى تلك الأمانى الباطلة أمانيّهم » « والأمنيّة أفعولة من التّمنّى مثل الأضحوكة والأعجوبة »[٢] .

هاتوا : معناه أحضروا . والهاء أصليّة ، لا بدل من همزة آتى لتعدّيها إلى واحد[٣] .

برهانكم : البرهان : الدّليل الّذى يوقع اليقين ، وجمعه براهين مثل : قربان وقرابين وسلطان وسلاطين[٤] والبيان والحجّة والبيّنة[٥] « وقال بعضهم : هو مصدر بَرَه يَبْرَه إذا ابيضّ . ورَجُلٌ أَبْرَهُ وامرأةٌ بَرْهاءُ وقومٌ بُرْهٌ ..... فالبُرْهان أوكد الأدلّة ، وهو الّذى يقتضى الصّدق أبدًا لا محالةَ ، وذلك أنّ الأدلّة خمسةُ أضرب : دلالةٌ تقتضى الصّدق أبدًا ، ودلالةٌ تقتضى الكذب أبدًا ، ودلالةٌ إلى الصّدق أقرب ، ودلالةٌ إلى الكذب أقرب ، ودلالةٌ هى إليهما سواء »[٦] .

لأهل الكتاب ، وفى مقدّمتهم اليهود ، مجموعةٌ من الأمانى الّتى لا تعتمد على منطق ولا تستند إلى دليل ، بل هى أقرب إلى أهواء النّفس الأمّارة بالسّوء ونزغات الشّيطان الرّجيم . وسبق أن تبيّنا بنصّ الآيات الكريمات أنّ الّذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ما يودّون أن ينزّل على المؤمنين من خيرٍ من ربّهم ، وأنّ كثيرًا من أهل الكتاب يودّون لو يردّون المؤمنين من بعد إيمانهم كفّارًا حسدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبيّن لهم الحقّ . والآية الكريمة الّتى نحن بصددها تبيّن أنّ هؤلاء الّذين كفروا برسالة محمّد بن عبد الله ﷺ وصدّوا عن سبيل الله تعالى ، من اليهود والنّصارى قالوا — ولا زالوا يقولون — لن يدخل الجنّة إلاّ من كان هودًا أو نصارى والمعنى أنّ اليهود أتباع موسى عليه السّلام يقولون إنّ الجنّة مقصورةٌ عليهم وحدهم فلا يدخل الجنّة حسب زعمهم سوى اليهود . وأنّ النّصارى أتباع عيسى عليه السّلام يقولون أيضًا إنّ الجنّة مقصورةٌ عليهم وحدهم

---

(١) الكشّاف ١ / ٢٣٣
(٢) الكشّاف ١ / ٢٣٣ .
(٣) البحر المحيط ١ / ٣٣٧
(٤) تفسير القرطبىّ ص ٤٦٣ .
(٥) تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٩٢
(٦) مفردات الرّاغب الأصفهانى ص ٤٥ .

فلا يدخل الجنّة حسب زعمهم سوى النّصارى . وما معنى قصر كلٍّ من اليهود والنّصارى الجنّة عليهم وحدهم دون سواهم ؟ معنى هذا أنّ النّصارى فى نظر اليهود لن يدخلوا الجنّة ضمن غير اليهود الممنوعين من دخول الجنّة حسب زعم اليهود ، وأنّ اليهود فى نظر النّصارى لن يدخلوا الجنّة ضمن غير النّصارى الممنوعين من دخول الجنّة حسب زعم النّصارى . وما هى النّتيجة الحتميّة وفق قول الفريقين ؟ النّتيجة الحتميّة أنّ الجنّة لن يدخلها أحد ، لأنّ النّاس جميعًا من غير اليهود والنّصارى ممنوعون من دخول الجنّة حسب زعم الفريقين ، ولأنّ النّصارى ممنوعون من دخول الجنّة بزعم اليهود ، واليهود ممنوعون من دخول الجنّة بزعم النّصارى . ولا أبلغ من ردّ الآية الكريمة الفوريّ على الفريقين فى هيئة الجملة المعترضة : « تلك أمانيّهم » وإذا كان التّمنّى يقع بالجائز والممتنع ، فهذا من الممتنع . وهى أمانٍ أملتها النّفس الأمّارة بالسّوء وسوّلتها لهم ، لأنّها نفسٌ استحوذ عليها الشّيطان الرّجيم .

والعجيب فى الأمر أنّ اليهود والنّصارى حتّى يوم النّاس هذا يزعمون أنّ الجنّة لا يدخلها إلاّ اليهود فى زعم اليهود ، أو النّصارى فى زعم النّصارى . ولا نستطيع أن نقول بأكثر من قول الحقّ جلّ وعلا : « تلك أمانيّهم » .

وتأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ ، وإنّ كلّ فردٍ من أمّته عليه الصّلاة والسّلام تبعٌ له فى ذلك : ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ والمعنى إن كنتم أيّها اليهود والنّصارى صادقين فى قولكم إن الجنّة لن يدخلها إلاّ من كان هودًا أو نصارى وجادّين فى زعمكم أنّ الجنّة مقصورةٌ على اليهود أو النّصارى فالمطلوب منكم أن تقدّموا برهانكم على هذا القول ، والحجّة البيّنة ، والدّليل الواضح . والمعروف أنّ اليهود والنّصارى الّذين لا زالوا يردّدون هذا القول : ﴿ لن يدخل الجنّة إلاّ من كان هودًا أو نصارى ﴾ لم يقدّموا حتّى يوم النّاس هذا — ولن يقدّموا — البرهان السّاطع الّذى يقبل معه قولهم . بل إنّا إذا كنّا نفهم من الآية الكريمة أنّ اليهود والنّصارى كانوا يؤمنون بالبعث والنّشور وبالجنّة وبالنّار بقصد الثّواب أو العقاب ، فإنّ الملاحظ من الحديث مع الكثير من أفراد القوم أنّهم لا يؤمنون فى مجموعهم اليوم بأنّ بعد الموت بعثًا وحسابًا ، ثوابًا أو عقابًا . فإذا تحوّلت

إلى الحديث مع الّذين يؤمنون من القوم بالبعث والجزاء ، تبيّنت أنّهم لا زالوا يكرّرون القول الّذى جاء فى الآية الكريمة : ﴿ لن يدخل الجنّة إلاّ من كان هودًا أو نصارى ﴾ ويعتبر هذا مظهرًا من مظاهر إعجاز القرآن الكريم . فلا يقتصر إعجازه على تبيين الكثير ممّا كان يخفى أهل الكتاب ويغمغمون ، إنّما يتجاوزه إلى كون ما بيّنه القرآن الكريم لا زالت تلوكه ألسنتهم بعد هذه القرون المتطاولة . وقياسًا على ما مضى نستطيع أن نذهب إلى القول بأنّ كلاًّ من اليهود والنّصارى سيكرّرون إلى ما شاء الله تعالى هذا القول فى الآية الكريمة : ﴿ لن يدخل الجنّة إلاّ من كان هودًا أو نصارى ﴾ ونستطيع أن نقول وراء ذلك إنّ هذا التّكرار للقول على ألسنة القوم يعتبر قوّةً إضافيّة لإعجاز القرآن الكريم ، كتاب الله تعالى العزيز الّذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد . وقد قال عزّ من قائل[1] : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتّى يتبيّن لهم أنّه الحقّ ، أو لم يكف بربّك أنّه على كلّ شيءٍ شهيد . ألا إنّهم فى مريةٍ من لقاء ربّهم ، ألا إنّه بكلّ شيءٍ محيط ﴾ وقال تعالى[2] : ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجرٍ وما أنا من المتكلّفين . إن هو إلاّ ذكرٌ للعالمين . ولتعلمنّ نبأه بعد حين ﴾ .

الآيــة رقــم (١١٢)

قال تعالى : ﴿ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسنٌ فله أجره عند ربّه ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

بلى : فى أثناء حديثنا عن الآية الكريمة الحادية والثّمانين بيّنّا معنى بلى ، فهى حرف جواب لا يقع إلاّ بعد نفي فى اللّفظ أو المعنى ، وأصلها بل الّتى للإضراب عن الأوّل ، زيدت عليها الياء ، ليحسن الوقف عليها ، وضمّنت الياء معنى الإيجاب . فبل تدلّ على ردّ الجحد ، والياء تدلّ على الإيجاب لما بعد . يقول القرطبىّ[3] : « بلى ردًّا عليهم وتكذيبًا

---

(١) سور فصّلت ٥٣ ، ٥٤ (٢) سورة ص ٨٦ — ٨٨ .

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٤٦٣ .

لهم ، أى ليس كما يقولون » .

مَنْ : عاد الضّمير فى وجهه وله على لفظ من ، وكذلك أجره . وعاد فى عليهم على المعنى ، وكذلك فى يحزنون[١] وهذا هو الأفصح وهو أن يبدأ أوّلاً بالحمل على اللّفظ ثمّ بالحمل على المعنى[٢] .

أسلم : بالنّظر إلى السّين واللّام والميم يتبيّن أنّ معظم هذا الباب من الصّحّة والعافية ، ومن ذلك الإسلام ، وهو الانقياد ، لأنّه يسلم من الإباء والامتناع[٣] : « والإسلام فى الشّرع على ضربين ، أحدهما دون الإيمان ، وهو الاعتراف باللّسان ، وبه يُحْقن الدّم ، حصل معه الاعتقاد أو لم يحصل ، وإيّاه قُصِد بقوله : ﴿ قالتِ الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ﴾ . والثّانى فوق الإيمان ، وهو أن يكونَ مع الاعتراف اعتقادٌ بالقلب ، ووفاءٌ بالفعل ، واستسلامٌ لله فى جميع ما قضى وقدّر ، كما ذُكِر عن إبراهيم عليه السّلام فى قوله : ﴿ إذ قال له ربّه أسلم قال أسلمت لربّ العالمين ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ إنّ الدّين عند الله الإسلام ﴾ . وقوله : ﴿ توفّنى مسلما ﴾ أى اجعلنى ممّن استسلم لرضاك »[٤] والمقصود فى الآية الكريمة المعنى الثّانى الّذى يكون معه الاستسلام لله تعالى فى جميع ما قضى وقدّر ، وقد قال القرطبىّ[٥] : « ومعنى أسلم استسلم وخضع . وقيل أخلص عمله » وقال ابن كثير[٦] : « أى من أخلص العمل لله وحده لا شريك له كما قال تعالى : ﴿ فإن حاجّوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتّبعن ﴾ وقال الطّبرىّ[٧] : « وأصل الإسلام الاستسلام ، لأنّه مِن استسلمتُ لأمره ، وهو الخضوع لأمره . وإنّما سمّى المسلم مسلمًا بخضوع جوارحه لطاعة ربّه » .

وجهه « وخصّ الوجه بالذّكر لكونه أشرف ما يرى من الإنسان ، ولأنّه موضع الحواسّ ، وفيه يظهر العزّ والذّلّ . والعرب تخبر بالوجه عن جملة الشّىء »[٨] ولأنّ أكرم

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٤٦٣
(٢) البحر المحيط ١ / ٣٥٢ .
(٣) معجم مقاييس اللّغة : « سلم » ٣ / ٩٠
(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ ص ٢٤٠ .
(٥) تفسير القرطبىّ ص ٤٦٣
(٦) تفسير ابن كثير ١ / ١٥٤ .
(٧) تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٩٣
(٨) تفسير القرطبىّ ص ٤٦٣ .

أعضاء ابن آدم وجوارحه وجهه ، وهو أعظمها عليه حرمةً وحقًّا ، فإذا خضع لشيءٍ وجهُهُ الّذى هو أكرم أجزاء جسده عليه فغيره من أجزاء جسده أحرى أن يكون أخضع له »[١] .

وهو محسن : جملةٌ فى موضع الحال[٢] وهى مؤكّدة من حيث المعنى ، لأنّ من أسلم وجهه لله فهو محسن[٣] ولابن كثير اجتهادٌ موفّق يقول[٤] : « وهو محسنٌ : أى اتّبع فيه الرّسول ﷺ ، فإنّ للعمل المتقبّل شرطين ، أحدهما أن يكون خالصًا لله وحده ، والآخر أن يكون صوابًا موافقًا للشّريعة . فمتى كان خالصًا و لم يكن صوابًا لم يتقبّل ، ولهذا قال رسول الله ﷺ : من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ . رواه مسلم من حديث عائشة عنه عليه الصّلاة والسّلام . فعمل الرّهبان ومن شابههم وإن فُرِض أنّهم مخلصون فيه لله ، فإنّه لا يتقبّل منهم حتّى يكون ذلك متابعًا للرّسول ﷺ ، المبعوث إليهم وإلى النّاس كافة . وفيهم وأمثالهم قال الله تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عملٍ فجعلناه هباءً منثورا ﴾ . وقال تعالى : ﴿ والّذين كفروا أعمالهم كسرابٍ بقيعةٍ يحسبه الظّمآن ماءً حتّى إذا جاءه لم يجده شيئًا ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وجوهٌ يومئذٍ خاشعة . عاملة ناصبة . تصلى نارًا حامية . تسقى من عينٍ آنية ﴾ .... وأمّا إن كان العمل موافقًا للشّريعة فى الصّورة الظّاهرة ، ولكن لم يخلص عامله القصد لله ، فهو أيضًا مردودٌ على فاعله ، وهذا حال المرائين والمنافقين ، كما قال تعالى : ﴿ إنّ المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصّلاة قاموا كسالى يراءون النّاس ولا يذكرون الله إلاّ قليلا ﴾ وقال تعالى : ﴿ فويلٌ للمصلّين الّذين هم عن صلاتهم ساهون . الّذين هم يراءون ويمنعون الماعون ﴾ . ولهذا قال تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحًا ولا يشرك بعبادة ربّه أحدا ﴾ » وقد بيّن المصطفى ﷺ معنى الإحسان بقوله[٥] : ﴿ أن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك ﴾ .

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٩٣
(٢) تفسير القرطبىّ ص ٤٦٣ .
(٣) البحر المحيط ١ / ٣٥٢
(٤) تفسير ابن كثير ١ / ١٥٤ .
(٥) صحيح البخارىّ ١ / ٢٠ .

ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون : ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه ، ولا هم يحزنون على ما مضى ممّا يتركونه[١] .

زعم أهل الكتاب أنّ الجنّة لا يدخلها إلاّ اليهود أو النّصارى ، على نحو ما تبيّن بشأن الآية الكريمة السّابقة الّتى قرّرت أنّ ذلك ضربٌ من أمانى أهل الكتاب ، وطلبت منهم الحجّة البيّنة على ما يقولون ، وليس لديهم حجّة ، وعليه يفهم من القول : ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أنّهم كاذبون فيما يقولون . وهذا الّذى لوّحت به الآية الكريمة صرّحت به الآية الكريمة التّالية الّتى نحن بصددها والّتى تبدأ بالقول « بلى » وقد فهمنا أنها تتألف من « بل » الّتى تفيد الإضراب عمّا سبق ، وتدلّ على ردّ الجحد ، ومن الياء الّتى زيدت عليها ليحسن الوقف عليها ، والّتى تدلّ على الإيجاب لما بعد . والمعنى بل أنتم كاذبون فى قولكم : لن يدخل الجنّة إلاّ من كان هودًا أو نصارى . وتبيّن الآية الكريمة البديل الصّحيح وتعيّن الّذين يدخلون بفضل الله تعالى الجنّة ، وتنصّ على أهم الشّروط الّتى ينبغى توافرها فيمن يستحقّ دخول الجنّة . إنّهما شرطان ينطوى تحتهما شروط . وأوّل الشّرطين إسلام الوجه لله تعالى . بمعنى الخضوع التّام لأوامر الله تعالى ونواهيه ، والاستسلام المطلق لمشيئته ، وإخلاص العبادة له جلّ وعلا وحده لا شريك له . وتنتقى الآية الكريمة من أجزاء الجسم دليلاً على الطّاعة التّامّة والاستسلام المطلق أهمّ أجزاء الجسم وأشرفها ، ألا وهو الوجه . إنّه جزءٌ من أرفع أجزاء الجسم وهو الرّأس الّذى فيه الحواسّ ، وللوجه الحظّ الموفور منها ، ثمّ إنّه يظهر فيه العزّ والذّلّ ، وقد جاء خطابًا لبنى إسرائيل قوله عزّ من قائل[٢] : ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم ﴾ وحينما يسلم الوجه لله تعالى ويخضع لأمره جلّ وعلا ومشيئته ، فذلك دليلٌ على خضوع سائر أجزاء الجسم لله تعالى . وسبق أن تبيّنّا أنّ هذا النّوع من الإسلام تالٍ للإيمان ومن باب الأولى أن يكون تاليًا للإسلام بمعناه القريب . أمّا الإيمان فإنّ أركانه السّتة معروفة ، وقد بيّنها المصطفى ﷺ فى القول[٣] : (أن تؤمن

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ١٥٥ وانظر تفسير الطّبرى ١ / ٣٩٤ .

(٢) سورة الإسراء ٧ .

(٣) الحديث الثّانى من الأربعين النّوويّة ص ٣١ وانظر صحيح البخارى ١ / ٢٠ .

بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشرّه ﴾ وأمّا الإسلام بمعناه القريب فهو الاعتراف باللّسان ، وأركانه الخمسة معروفة ، وهى : ﴿ أن تشهد ألاّ إله إلاّ الله وأنّ محمّدًا رسول الله ، وتقيم الصّلاة ، وتوتى الزّكاة ، وتصوم رمضان ، وتحجّ البيت إن استطعت إليه سبيلاً ﴾[1] ويلاحظ أنّ لفظ الجلالة « الله » هو الّذى يجىء فى القول : « بلى من أسلم وجهه لله » لأنّ المناسبة عامّة ، والمعروف أنّ لفظ الجلالة « الله » إنّما يجىء حينما يكون الموقف يقتضى العموم .

وثانى الشّرطين الإحسان ، قال تعالى : ﴿ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن ﴾ وسبق أن تبيّنّا درجات الإسلام المتفاوتة ، وتداخل بعضها فى الإيمان ودرجاته المتفاوتة هى الأخرى . وتأتى درجة الإحسان تاليةً لدرجتى الإسلام والإيمان مبنيّةً عليهما ، متمّمةً لهما . وقد بيّن المصطفى ﷺ معنى الإحسان فقال[2] : ﴿ الإحسان أن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك ﴾ .

وما هو جزاء الّذى يسلم وجهه لله تعالى وهو محسن ؟ جزاؤه الأجر الكبير من الله تعالى الّذى أعدّه له ﴿ فله أجره عند ربّه ﴾ وهذا الأجر لا يقتصر على الحياة الآخرة إنّما يشمل بفضل الله تعالى الحياة الأولى كذلك ، وقد قال عزّ من قائل[3] : ﴿ من عمل صالحًا من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فلنحيينّه حياةً طيّبةً ولنجزينّهم أجرهم بأحسنِ ما كانوا يعملون ﴾ وانظر إلى الضمير الغائب المفرد الّذى جاء مرّاتٍ ثلاثًا فى القول : ﴿ فله أجره عند ربّه ﴾ وقد عرفنا أنّ الضّمير المفرد جاء مراعاةً للفظ « مَنْ » وامتدادًا لهذه المراعاة فى القول : ﴿ أسلم وجهه لله وهو محسن ﴾ وانظر إلى لفظ الرّبّ فى القول « عند ربّه » المعمّق للخصوص ، المقوّى لشذا الرّضا والامتنان والسّعادة والحبور ، الّذى يشعّ فى جوّ قيام المسلم وجهه لله ربّ العالمين المحسن ، بواجبه تجاه ربّه جلّ وعلا مربّيه بنعمه وآلائه ، من شكرٍ له جلّ وعلا بعبادته وحده لا شريك له . والمعروف أنّ لفظ الرّبّ

---

(١) الحديث الثّانى من الأربعين النّوويّة ص ٢٩ وانظر صحيح البخارىّ ١ / ٢٠ .

(٢) صحيح البخارى ١ / ٢٠ وانظر الحديث الثانى من الأربعين النّوويّة ص ٣١ .

(٣) سورة النّحل ٩٧ .

إنّما يستعمل فى مواقف الخصوص وفى أجواء البشر والحبور ، وفى مناسبات التّنبيه إلى وجوب القيام بشكر الرّبّ جلّ وعلا مُربّى عباده بنعمه العظيمة وآلائه الجسيمة . وإنّ لفظ الرّبّ هنا المتعلّق بالخصوص ، يذكّرنا بلفظ الجلالة فى القول : ﴿ بلى من أسلم وجهه لله ﴾ المتعلّق بالعموم .

ولا يقف فضل الله تعالى العميم على عباده عند مكافأتهم على إسلامهم وإحسانهم ، إنّما يتجاوزه إلى جعل حياتهم فى الأخرى طيّبة ، وهم الّذين تتوفّاهم الملائكة طيّبين ، وذلك امتدادٌ لحياتهم الطيّبة فى الأولى . ويكون ذلك بصرف الخوف عنهم والحزن . أمّا الخوف فممّا يستقبلون وقد حضر أحدهم الموت ، وقد قال عزّ من قائل[١] : ﴿ الّذين تتوفّاهم الملائكة طيّبين يقولون سلامٌ عليكم ادخلوا الجنّة بما كنتم تعملون ﴾ وقال تعالى[٢] : ﴿ يا أيّتها النّفس المطمئنّة ارجعى إلى ربّك راضيةً مرضيّة . فادخلى فى عبادى وادخلى جنّتى ﴾ إنّ من نصيب المسلمين لله ربّ العالمين المحسنين الأمن بدل الخوف . وقد قال عزّ من قائل[٣] : ﴿ الّذين آمنوا و لم يَلْبِسوا إيمانهم بظلمٍ أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ . وقال تعالى[٤] : ﴿ ألا إنّ أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون . الّذين آمنوا و كانوا يتّقون . لهم البُشْرَى فى الحياة الدّنيا وفى الآخرة . لا تبديل لكلمات الله . ذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

وأمّا الحزن المصروف عن هؤلاء المسلمين المحسنين فالمراد به الحزن على ما تركوا فى هذه الحياة الدّنيا من أهل وولدان ومالٍ وخلاّن . إنّ الآخرة خيرٌ لهم من الأولى ، وقد جمع الله سبحانه وتعالى لهم بين صرف الخوف والحزن ، وإحلال الأمن والسّلام محلّهما . وقد جاء على لسان أصحاب الجنّة قوله عزّ من قائل[٥] : ﴿ وقالوا الحمد لله الّذى أذهب عنّا الحزن إنّ ربّنا لغفورٌ شكور . الّذى أحلّنا دار المُقامة من فضله لا يمسُّنا فيها نَصَبٌ ولا يمسُّنا فيها لغوب ﴾ .

---

(١) سورة النّحل ٣٢
(٢) سورة الفجر ٢٧ ــ ٣٠ .
(٣) سورة الأنعام ٨٢
(٤) سورة يونس ٦٢ ــ ٦٤
(٥) سورة فاطر ٣٤ ، ٣٥ .

وانظر إلى نفى الخوف أوّلاً ونفى الحزن ثانيًا ، وإلى الحكمة فى هذا التّرتيب . إنّ الخوف متعلّقٌ بما يستقبل من أمور الآخرة الّتى سينتهى إليها المرء حتمًا منذ وفاته . وإنّ تقديم الخوف الّذى هو من متعلّقاتها دليلٌ على كون أمور الآخرة هى الّتى تطغى على من حضرته أسباب الوفاة . أما وقد أزال الله سبحانه وتعالى الخوف عن المسلم المحسن وتفضّل عليه بالأمن ، وبما أنّ الأمن خاصٌّ به وحده ، وقد أكرمه الله تعالى به ، ففى نفى الحزن عن هذا المحسن إشعارٌ بتفضّل الله تعالى عليه بإذهاب الحزن عنه وإحلال السّرور محلّه بشأن ما ترك فى الحياة الدّنيا . ونتذكّر بهذه المناسبة قوله عزّ من قائل[1] : ﴿ والّذين آمنوا واتّبعتهم ذرّيّتُهُمْ بإيمانٍ ألحقنا بهم ذرّيّتَهُمْ وما ألتْناهم من عملهم من شىء ، كلّ امرىءٍ بما كسب رهين ﴾ وقوله عزّ من قائل[2] : ﴿ جناتُ عدنٍ يدخلونها ومن صَلَحَ من آبائهم وأزواجهم وذرّيّاتهم والملائكةُ يدخلون عليهم من كلّ باب . سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدّار ﴾ .

إنّه بالإضافة إلى الثّواب الجزيل الّذى يجعله الله تعالى من نصيب المسلمين المؤمنين المتّقين المحسنين ، فإنّ الله سبحانه وتعالى يكرمهم بالأمن بدل الخوف ممّا يستقبلون من أمور الآخرة الّتى يهتمّون لها بالدّرجة الأكبر ، كما يكرمهم جلّ وعلا بإذهاب الحزن عنهم على ما يستدبرون من أمور الدّنيا ، وبخاصّة ما يتعلّق بالأهل والذّرّيّة . ويتوّج كلّ ذلك بالقول[3] : ﴿ سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ وبالقول[4] : ﴿ سلامٌ قولاً من ربٍّ رحيم ﴾ ولعلّنا تبيّنا فى صيغة الجمع مراعاة معنى مَنْ وذلك فى القول : ﴿ ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ولعلّنا وقد راعينا التّدرّج فى كلٍّ من الجزئيّتين الكريمتين ، فالإحسان مترتّبٌ على الإسلام ومبنىٌّ عليه ، وصرف الخوف والحزن مترتّبٌ على الأجر ومبنىٌّ عليه ، لعلّنا نستطيع أن نقول : إنّ الإجر عند الرّبّ جلّ وعلا مقابل إسلام الوجه لله تعالى ، وإنّ صرف الخوف والحزن مقابل الإحسان . إنّ الاتّجاه صعدًا فى سلّم الحسنات ، يقابله الاتّجاه صعدًا فى سلّم الأجر . فسبحان الله تعالى الّذى لا يعزب عنه مثقال ذرّةٍ فى السّماوات ولا فى الأرض جلّ وعلا .

---

(١) سورة الطّور ٢١ .
(٢) سورة الرّعد ٢٣ ، ٢٤ .
(٣) سورة الرّعد ٢٤ .
(٤) سورة يس ٥٨ .

الآيــة رقــم (١١٣)

قال تعالى : ﴿ وقالت اليهود ليست النّصارى على شيءٍ وقالت النّصارى ليست اليهود على شيءٍ وهم يتلون الكتاب . كذلك قال الّذين لا يعلمون مثل قولهم ، فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ .

سبب النّزول .

عن ابن عبّاسٍ قال : لمّا قدم أهل نجران من النّصارى على رسول الله ﷺ ، أتتهم أحبار يهود فتنازعوا عند رسول الله ﷺ فقال رافع بن حريملة : ما أنتم على شيء ، وكفر بعيسى ابن مريم وبالإنجيل ، فقال رجلٌ من أهل نجران من النّصارى ما أنتم على شيءٍ وجحد نبوّة موسى وكفر بالتّوراة ، فأنزل الله عزّ وجلّ فى ذلك من قولهما : وقالت اليهود ليست النّصارى على شيءٍ وقالت النّصارى ليست اليهود على شيء ، إلى قوله : ﴿ فيما كانوا فيه يختلفون ﴾[1] .

اليهود : يقول أبو حيّان[2] : « اليهود ملّة معروفة ، والياء أصليّة ، فليست مادّة الكلمة مادّة « هود » من قوله : هودا أو نصارى لثبوتها فى التّصريف ..... قال الأستاذ أبو علىّ الشّلوبين ، وهو الإمام الّذى انتهى إليه علم اللّسان فى زمانه : يهود فيها وجهان ، أحدهما أن تكون جمع يهودىّ فتكون نكرةً مصروفة . والثّانى أن تكون عَلَمًا لهذه القبيلة فتكون ممنوعةَ الصّرف . انتهى كلامه . وعلى الوجه الأوّل دخلته الألف واللّام ، فقالوا : اليهود ، إذ لو كان علمًا لما دخلته . وعلى الثانى قال الشّاعر :

أولــئك أَوْلى مــن يهود بمدحــةٍ إذا أنت يومًــا قــلتها لم تــؤنّب

على شيءٍ : أى على شيءٍ يصحّ ويعتدّ به ، وهذه مبالغةٌ عظيمة[3] .

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٩٤ وانظر تفسير ابن كثير ١ / ١٥٥ وتفسير القرطبىّ ص ٤٦٤ والبحر المحيط ١ / ٣٥٢ .

(٢) البحر المحيط ١ / ٣٣٨ (٣) الكشّاف ١ / ٢٣٣ .

وهم يتلون الكتاب : يعنى التّوراة والإنجيل ، والجملة فى موضع الحال[١] أى وهم ، عالمون بما فى كتبهم تالون له . وهذا نَعْىٌ عليهم فى مقالتهم تلك ، إذ الكتاب ناطقٌ بخلاف ما يقولونه ، شاهدةٌ توراتهم ببشارة عيسى ومحمّدٍ عليهما الصّلاة والسّلام وصحّة نبوّتهما ، وإنجيلهم شاهدٌ بصحّة نبوّة موسى ومحمّد صلّى الله عليهما وسلّم . إذ كتب الله يصدّق بعضها بعضًا[٢] عن ابن عبّاس : أى كلٌّ يتلو فى كتابه تصديق ما كفر به ، أى يكفر اليهود بعيسى وعندهم التّوراة فيها ما أخذ الله عليهم من الميثاق على لسان موسى بالتّصديق بعيسى عليه السّلام ، وفى الإنجيل ممّا جاء به عيسى تصديق موسى وما جاء به من التّوراة من عند الله . وكلٌّ يكفر بما فى يد صاحبه[٣] .

كذلك قال الّذين لا يعلمون : المراد بالّذين لا يعلمون فى قول الجمهور كفّار العرب لأنّهم لا كتاب لهم[٤] .

يحكم : أى يفصل ، والفصل الحكم[٥] وهذه الآية كقوله تعالى فى سورة الحجّ : إنّ الّذين آمنوا والّذين هادوا والصابئين والنّصارى والمجوس والّذين أشركوا إنّ الله يفصل بينهم يوم القيامة إنّ الله على كلّ شىءٍ شهيد . وكما قال تعالى : ﴿ قل يجمع بيننا ربُّنا ثمّ يفتح بيننا بالحقّ وهو الفتّاح العليم ﴾[٦] .

يوم القيامة : وأمّا القيامة فهى مصدر من قول القائل : قمت قيامًا وقيامة ، كما يقال : عدت فلانًا عيادة وصنت هذا الأمر صيانة . وإنّما عنى بالقيامة قيام الخلائق من قبورهم لربّهم ، فمعنى يوم القيامة يوم قيام الخلائق من قبورهم لمحشرهم[٧] .

زعم اليهود أنّ دخول الجنّة مقصورٌ عليهم ، وزعم النّصارى أنّ دخول الجنّة مقصورٌ عليهم كذلك ، وقد أكذبهم الله تعالى على نحو ما مرّ بنا . والآية الكريمة الّتى نحن بصددها

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٤٦٤ وانظر الكشّاف ١ / ٢٣٣ وتفسير الطّبرىّ ١ / ٣٩٥ .
(٢) البحر المحيط ١ / ٣٥٣ (٣) تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٩٥ .
(٤) تفسير القرطبىّ ص ٤٦٤ والبحر المحيط ١ / ٣٥٣
(٥) البحر المحيط ١ / ٣٥٤ وتفسير الطّبرىّ ١ / ٣٩٦ .
(٦) تفسير ابن كثير ١ / ١٥٥ والآية الكريمة هى رقم ٢٦ من سورة سبأ .
(٧) تفسير الطّبرىّ ١ / ٣٩٦ .